

بحوث ومقالات

الثقافة العربية اليوم وغدا

- ٣ -

العلم والفلسفة للدكتور إبراهيم مكي

وتفكيره : وانفتاح على الغرب وعلى
ما حقق في ميادين البحث والكشف والاختراع
ورغبة صادقة في محاكاته والسير على نهجه
ووعى يدرك مدى التخلف الطويل ،
وينشد نهوضا وتجديدا يسابق بهما الزمن ؟
وقد أدرك العالم العربي ما للعلم من شأن في
هذا كله ، فأتجه في القرن العشرين نحو
نشر التعليم ماوسعه ، وعد ذلك من أهم
أهدافه. فرصد له في ميزانيته مبالغ زادت عاما
بعد عام ، واستعان بالعلماء والخبراء العرب
أو الأجانب كلما دعت إلى ذلك حاجة ،
وأوفد البعث إلى الخارج استكمالا للدرس
والبحث : ولنلق نظرة على نمو التعليم
الجامعي ، ولأنه لنمو سريع ومطرد .
فقد عرفت مصر الحياة الجامعية في بدء القرن
العشرين ، وأسست عام ١٩٠٨ جامعتها
الأهلية التي كانت تسمى « الجامعة المصرية
القديمية » ، وفي أقل من عشرين سنة تحولت
إلى جامعة حكومية هي ما يسمى الآن
« جامعة القاهرة » ، وتلها في نحو خمسين
سنة سبع جامعات جديدة ، وهناك أخرى

هذه السلسلة بإلقاء نظرة
على موقف الثقافة العربية
من العلم والفلسفة ، وموقفها

تختتم

منهما اليوم لا يختلف عنه بالأمس إبان ازدهار
الحضارة الإسلامية ، فقد اتسع صدر هذه
الحضارة لعلوم الشرق والغرب ، وأخذت
منها ما أخذت ، وأضافت إليها ما أضافت .
وكان لها شأن في إثارة البحث العلمي في
الغرب إبان القرون الوسطى والتاريخ الحديث .
والثقافة العربية المعاصرة تؤمن بأننا نعيش
حقا في عصر العلم والتكنولوجيا ، وتسلم
بأنها تخلفت في معالجتها بعض الشيء ،
وتحرص اليوم على أن تستحث الخطى
وأن تتدارك ما فات .

١ - ولقد قهر العلم والفلسفة في البلاد
العربية قفزة ملحوظة ، وهي بلا شك
وليدة تحرر وانفتاح ، ووعى ويقظة .
تحرر مهدت له دعوة النهوض والإصلاح
التي نادى بها أمثال جمال الدين الأفغاني
(١٨٩٧) ومحمد عبده (١٩٠٥) ، وهي
دعوة تعمد بالإنسان ، وتفسح المجال لعقله

في طريق الإعداد والتكوين: حيث يكون لكل محافظة جامعتها الخاصة. ومنذ عشر سنوات لم يكن في العراق إلا جامعة واحدة وتوفر لديها الآن أربع، وعلى هذا النحو سارت سوريا، وانتقلت من جامعة واحدة إلى ثلاث. وفي لبنان على صغرها أربع جامعات، إذا تركنا جانبا بعض المعاهد الأجنبية، وجامعاتها قسيان: اثنتان عربيتان واثنتان من أصل أجنبي. وفي نحو عشر سنوات توفر للجزائر ثلاث جامعات وللسعودية والكويت جامعاتهما في المشرق، ولتونس والمغرب جامعاتهما في المغرب. وربما اجتمع في المدينة الواحدة عدة جامعات، كما هو الشأن في القاهرة وبيروت. وبالجملة في العالم العربي الآن ما يزيد على ٤٠ جامعة على رأسها اتحاد ينسق بينها، ويربط بعضها ببعض، وفي هذا مافيه من تعاون واتصال، ولا شك في أن في هذا النمو ما يبعث على الأمل وينشر ألوية النور والعرفان. وقد أسهم الأستاذ والكتاب المصري في ذلك، وعليهما وحدهما عولت بعض الجامعات العربية الناشئة.

٢- ومن بين هذه الجامعات ما استوعب أبواب البحث كلها، فاشتمل على كليات للدراسات الإنسانية، وأخرى للعلوم الرياضية والطبيعية، وفي كل كلية أقسام وفروع متعددة. ولم تفقد الدراسات الإنسانية منزلتها وبها بدأ معظم هذه الجامعات، ولا يزال بعضها مقصورا عليها. والعلوم الإسلامية من تفسير وحديث، وفقه وأصول، جزء منها، وفي كثير من الجامعات العربية كليات

وأقسام متخصصة فيها. وقد اضطلع بها أساتذة أعلام طوروا وجددوا، كشفوا عما فيها من عمق وأصالة، وبرهنوا على أن فيها ما يلائم العصر ويسد حاجاته. كتبوا وألفوا ولم ينتج لا يقل عن إنتاج الشيوخ السابقين. وفي التاريخ عن الأساتذة العرب بالحضارة الإسلامية عناية خاصة، فوضحو كثيرا من جوانبها، ومحصوا بعض ما رميت به أو أخذ عليها، وجاءوا بإضافات لها وزنها. واضطلع مؤرخون آخرون بحفريات حول الحضارات القديمة من فرعونية ورومانية، أو بابلية وأشورية، وأسفرت أبحاثهم عن نتائج هامة: والفكر الإسلامي في نصف القرن الأخير مدين للباحثين والجامعيين العرب، قاموا بجمع تراثه، وحققوا منه ما حققوا، ونشروا ما نشروا. وحاولوا أن يترجموا منه قدراً إلى لغات أخرى، وكم نود باسم التبادل الثقافي أن تنشط هذه الترجمة وأن يتسع مداها. وحاول مؤرخو الفكر والفلسفة أن يعرفوا بمدارس إسلامية غفل الناس عنها، وأن يترجموا لرجال بقوا مستورين في غياهب التاريخ. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن من بين علماء الاجتماع العرب من قام بدراسات عقلية هامة، ومن بين علماء النفس من اضطلع بدراسات ونتجاب مقنعة.

٣- ويحس العالم العربي إحساسا صادقا بأنه يعيش في عصر العلم والتكنولوجيا، في عصر الملاحظة والتجربة، فأعد لذلك عدته

من معامل ومراصد ، من محطات تجارب ومراكز بحوث ، من معاهد ومؤسسات ورغبة في تشجيع العلم والسر عليه ، خصصت وزارات للبحث العلمي ، لها أجهزتها ووسائلها ، لها توجيهاتها وإشرافها واستكمل بعض الجامعات العربية فروع الدراسات الطبيعية والرياضية على اختلافها ، من طب وفسولوجيا ، وكيمياء وصيدلة ، ، ونبات وحيوان ، رجولوجيا وبترو ، وطبيعة ورياضة ، وهندسة وميكانيكا ، وكهرباء وإلكترونيات . وفي كل فرع من هذه الفروع أساتذة متخصصون لهم تجاربهم وأبحاثهم بالعربية أو الإنجليزية ، ومنها ما نشر في بعض المجلات العلمية ، أو ما كان محل تنويه وتعليق في المؤتمرات الدولية : وكان طبعيا أن يبرزوا في بعض الميادين الخاصة بهم كالنباتات الصحراوية والطبية ، أو في بعض أمراض البيئة وأعراضها ، وبينهم أعلام يعدون في مصاف الأطباء والعلماء العالمين ، ولكن مادة من هذه المواد جمعياتها وهيئاتها التي تشجع عليها ، وتتابع نشاطها ، وتنظم لقاءاتها ومؤتمراتها ، وتنشر أبحاثها ، وتخرج صحيفة باسمها . وفي مصر وحدها ما يزيد على أربعين جمعية علمية ، وعلى رأسها الاتحاد العلمي المصري الذي يربطها بالاتحادات العلمية في العالم العربي . وفي هذه الجمعيات وتلك الاتحادات تبادل وتعاون ، وربط وتنسيق .

٤ - ولم يبق إلا أن نقول كلمة عن الثقافة الجماهيرية ، وهي ظاهرة هامة من ظواهر المجتمع المعاصر في البلاد النامية والمتقدمة على السواء ، ولا شك في أن البلاد النامية إليها أحوج . إنها ثقافة شعبية تخاطب الجميع وتنزل عند مستواهم السائد ، ويراد بها أن تكمل نقصا ، أو أن تضيف جديدا في عالم نفاجا فيه كل يوم بالحديد . وكانت الثقافة بالأمس وقفا على الخاصة ، ينعمون بها وحدهم ، ويعلنون باسمها تفوقهم ولا تقر الديمقراطية ولا الاشتراكية هذه التفرقة الظالمة ، ولا هذا التمييز الذي لا أساس له . والحق أن الثقافة ملك للجميع وقدر منها ضروري للحياة ، ويزيد هذا القدر كلما تنوعت وسائل الحياة وتعقدت . وعلى الدولة أن تيسر أمر هذه الثقافة وأن تسهر عليها . وقد أدرك العالم العربي ما لها من شأن حياتنا الحاضرة ، فوقف عليها وزارات خاصة ، وليست مهمتها بأقل من مهمة وزارة التربية والتعليم ، ترعى الكهول والشيوخ في حين ترعى الأخرى الأطفال والشبان . لها مراكزها ومعاهدها ، وفي هذه المراكز تكافح الأمة ، وتيسر القراءة ، وتقدم المعلومات النافعة ، ولا بأس من قدر من وسائل الترفيه والتسلية . ويدخل في اختصاص هذه الوزارات مراقبة المسرح والسينما ، وتتبعها وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة . فتعددت وسائلها ، وتنوعت سبلها . وقدما كان المسجد الوسيلة الوحيدة لتقديم شيء من الثقافة الشعبية والدينية ، وفي الإمكان أن يضم إلى الوسائل السابقة .

وبالمهم أن نوضح خطة واضحة للثقافة الجماهيرية ، فتحدد أهدافها ، وتتخير وسائلها، وتطرد فيها الخطى في دقة وانتظام . ومن الخطأ أن تطغى عليها اعتبارات شخصية أو دعايات سياسية ، فينصرف الجمهور عنها ، ولا تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل .

خاتمة :

هذه هي الثقافة العربية اليوم ، وفي حاضرها مايسمح بالحكم على شيء من مستقبلها ، ويؤيدنا في ذلك ماحدث من تطور في بلاد أخرى مرت بظروف شبيهة بظروفها . ونعتقد أنه في أخريات هذا القرن ستنمحي الأمية في كثير من البلاد العربية ، وستسير الفتاة عامة إلى جانب الفتى في طلب العلم والحرص عليه . والإقبال على التعليم في تزايد مستمر ، ويفوق عدد طلابه سنويا كل تقدير . والمدارس الثانوية والمتوسطة سخية كل السخاء في عطائها ، وخريجوها في ازدياد مطرد . ولاسيبل ، بل لامصلحة في أن يستوعبهم جميعا التعليم العالي والجامعي . وأولى بقدر كبير منهم أن يواجه طلبات المجتمع المختلفة ، وأن ينهض بالاقتصاد القومي في شتى نواحيه من زراعة وصناعة وتجارة . وفي اختصار: نتوقع في نهاية هذا القرن أن يرتفع المستوى الثقافي العام للفرد في العالم العربي . وبدأنا نلاحظ بالفعل أن الأجيال الصاعدة أكمل ثقافة وأتم معرفة من الأجيال التي سبقتها ، وليس

شيء أعون على النهوض والتقدم من انتشار العلم والمعرفة .

ولم يبق اليوم شك في أن العربية هي اللغة القومية ، يستمسك بها العالم العربي جميعه ، يجد في طلبها وتعلمها ، ويتدارك ما فاتته منها ، وللجزائر في ذلك تجربة جادة فهي الآن في معركة التعريب بعد أن فرغت من معركة التحرير ، وسيكون لتجربتها صدى شرقا وغربا . ومنذ أوائل القرن العشرين تبذل جهود متلاحقة لتبسيط العربية وتيسيرها ، فتهذب ألفاظها ، وتختصر قواعدها، ويبسط إملأؤها، وتيسر كتابتها وقد أنجز من ذلك قدر لا بأس به . ولن تقف عربية اليوم السهلة الميسرة عند العالم العربي وحده ، بل ينتظر لها امتداد في آسيا وأفريقيا ، وحياة جديدة في البلاد الإسلامية خاصة . ونتوقع أن يزداد طلابها من أبناء أوروبا وأمريكا ، توثيقا للعلاقات السياسية والاقتصادية. وفي المعاهدات الثقافية المعقودة بين العالم العربي والبلاد الأخرى ما يعزز ذلك ويؤكدده ، وبدأنا فعلا نلاحظ شيئا من هذا فيمن يفدون إلى المعاهد والجامعات العربية من طلاب اللغة والفكر الإسلامي بين شرقيين وغربيين ، ويزداد عددهم باطراد، وتتأهب البلاد العربية لاستقبالهم . وفي انتشار التعليم في العالم العربي ما يقرب لغة الخطاب من لغة الكتابة ، ويضيق مسافة الخلف بين الفصحى والدارجة ، على نحو ما حدث في الإنجليزية أو الفرنسية ، ولانزاع

في أن عامية القاهرة اليوم مثلاً أرق وأسمى من عامية الأماص . وفي المسرح والسينما والإذاعة والصحافة ، وتبادل المعلمين والفنيين ما يقرب اللهجات العربية بعضها من بعض ، وما قد يؤدي إلى قيام لهجة واحدة مشتركة وسائدة .

وفي ثقافة اليوم تفتح وانطلاق ، فهي سائرة ومتقدمة لا تخشى الحديد ولا تنفر منه ، وما أشبهها في تفتحها بتلك الثقافة التي قامت عليها النهضة الإسلامية الكبرى . ترعى للدين ، حقوقه ، ولكن في غير جمود أو تزمت ، وترى أن ليس في تعاليمه ما يسد الطريق أو يضيق الآفاق ، وأن العلم قد تأخى مع الإيمان قديماً ، ولا يعز عليه أن يتأخى معه إلى النهاية . فلن تتوقف النهضة العربية في طريقها ، ولن تبالي بتلك الأصوات الهدامة والتي تدعو إلى التراجع والجمود . ولا نظنها أيضاً تستجيب للدعوات التحرر الخالص والإباحية المطلقة ، برغم ما تعتمد عليه هذه الدعوات من وسائل خفية وقوى دولية . وستبقى الثقافة العربية دائماً واقفة عند حدودها ، مؤمنة بقيمها

مستمسكة بمعالمها ، مقتنعة بأنه لا تعارض بين الدين والدنيا .

وكشفت ثقافة اليوم عن الإنسان العربي في حقوقه وواجباته ، فقدرت هذه الحقوق قدرها ، ونادت بالعدالة والمساواة ، ودعت إلى محاربة الجهل والفقر والمرض ، وخطت في ذلك خطوات فسيحة ، وستستمر في طريقها دون تردد . وأكد هذا ضرورة أداء الواجبات ، لأن المواطن الحق هو من يعطى بقدر ما يأخذ ، ومن يسهم بقسط في بنيان مجتمعه . فشعر الفرد العربي بوجوده ، واسترد اعتباره ، وتخلص من عقدة الأجنبي الأوربي ، وامتلأ ثقة بنفسه . وبدأ ينتج وهو مؤمن بكفاءته وقدرته على الإلتقان والتجديد . واشترك مع غيره في الإنتاج ، فلم يتخلف عن السير ، وربما برز على بعض أقرانه من الأوربيين والأمريكيين . وهو طموح إلى أن يكون لثقافته شأن يذكر بين الثقافات العالمية الكبرى ، وإنه لو اوصل إن شاء الله .

أبراهيم مدكور

رئيس المجمع

القول في "من" الزائدة وجواز وقوعها في القرآن الكريم للمفتي الدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

من

الجارة لها في اللغة معان كثيرة، أشهرها وأكثرها دورانا في الاستعمال ثلاثة:

«الابتداء والتبويض وبيان الجنس»

١ - الابتداء ، وهو أشهر معاني «من» على الإطلاق وهو الغالب في الاستعمال حتى قيل إنه هو الأصل الذي يرجع إليه سائر تلك المعاني :

ولكن هذا القول فيه شيء من المبالغة : ومحاولة رد المعاني كلها إلى معنى الابتداء لا يخلو من التكلف :

من أمثلة الابتداء قوله تعالى : «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله» . (البقرة : ٢٣) فمن الأولى في هذه الآية ابتدائية ، وكذلك الثانية إذا كان الضمير في «مثله» راجعا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو المراد بكلمة «عبدنا»^(١).

ومن أمثلة الابتداء أيضا قوله سبحانه : «فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين» : (٣٠ القصص)

وظاهر أن من «الأولى في قوله سبحانه من شاطئ الوادي الأيمن «ابتدائية» فإن موسى عليه السلام سمع النداء عن عينه آتيا من شاطئ الوادي في البقعة المباركة التي ابتداء فيها تكليمه بما ثبت له الرسالة .

وكذلك «من» الثانية عبارة «من الشجرة» ابتدائية تفيد أن النداء الآتي من جهة الشاطئ هو منبعث من الشجرة فإن هذه الشجرة كانت قائمة في ذلك الشاطئ .

فليست عبارة : «من الشجرة» متصلة بالبقعة المباركة حتى تكون «من» في بيانية ، وإنما هي متصلة بقوله سبحانه «من شاطئ الوادي الأيمن» على أنها بدل اشتمال منه و«من» فيها ابتدائية كما قلنا .

(١) أما إذا كان الضمير دارجا إلى المنزل - وهو معنى «ما» الموصلة - فإن «من» تكون بيانية قد رفع بها الإبهام الذي في كلمة «سورة» وبين بها المراد بتلك السورة التي أمروا أمر تحذير وتعجيز أن يأتوا بها : أي أن المطلوب أن يأتوا بسورة مماثلة للقرآن في فصاحته وبلاغته وعلو شأنه . ثم لا يصح أن تكون «من» للتبويض ، لأنه يؤهم أن يكون القرآن مثلا وأن عجزهم إنما يكون عن الإتيان ببعض منه .

٢ - التبعية ، كما في قوله تعالى -
حكاية عن رسول الله شعيب مخاطباً موسى
عليهما السلام - : وما أريد أن أشق عليك
ستجد في إن شاء الله من الصالحين . (٢٧)
القصص : وقوله سبحانه : « وأصلح لي في
ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين
(١٥) الأحقاف)

٣ - البيان ، كما في قوله تعالى « وإن
كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة
من مثله » : (٢٣ البقرة) ، إذا كان الضمير في
« مثله » راجعاً إلى « ما نزلنا » وهو القرآن
كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

وكما في قوله عز وجل : « أولم يعلم أن
الله قد أهلك من قبله من القرون من هو
أشد منه قوة وأكثر جمعاً » . (٧٨ القصص)
فكلمة « من » في قوله تعالى من « القرون » بيانية
أما الأولى التي في قوله سبحانه : « من قبله »
فهى ابتدائية ، والثانية - وهى التي في قوله
عز وجل : « أشد منه » تفضيلية داخلية على
المفضل عليه .

فإذا وردت « من في » تركيب دالة على
أحد معانيها الوضعية بأن كان مراداً إفادة
هذا المعنى على أن يكون جزءاً من المعنى
الأصلي المراد من التركيب فإنها حينئذ تكون
أصلية ولا يمكن الاستغناء عنها :

أما إذا كان أصل المعنى المراد من التركيب
يتحقق بدونها ، غير متوقف على أن تكون
مستعملة في معنى من معانيها الأصلية فإنها
تكون زائدة ^(١) :

وذلك كما في قوله تعالى : « وما تسقط من
ورقة إلا يعلمها » (١٥٩ الانعام) وقوله سبحانه
« هل من خالق غير الله يرزقكم » (٣ فاطر)
وقوله عز وجل : « ما ترى في خلق الرحمن
من تفاوت » أى اضطراب واختلال .
(٣ الملك)

فكلمة « من » هذه الآيات زائدة ، لانه
لم يرد بها إفادة معنى من معانيها الأصلية
على أن يكون جزءاً أساسياً من المعنى المقصود
من التركيب ، ولذلك يمكن الاستغناء عنها
فيقال في غير القرآن : « وما تسقط ورقة

(١) « قد يقال » إن هذا الضابط الذي يدل على زيادة الكلمة ينطبق على « من » الأولى في قوله تعالى :
« أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله » ، - وهى التي قررنا أنها ابتدائية ، وذلك أنه يمكن الاستغناء
عنها ، والاكتفاء بكلمة : « قبله » ، في غير القرآن بالضرورة ، وذلك لا يخل بالمعنى ، فإنه لا فرق بين
أن يقال : قد أهلك من قبله « وأن يقال - في غير القرآن - : « قد أهلك قبله » .
ويجاء عن ذلك بأن كلمة قبله إذا كانت تدل وحدها إجمالاً على الزمن الذي أهلك الله فيه تلك
القرون ، وأنه كان قبل زمن قارون - فإنها لا تنهض للادلة على أما تفيد « من » الابتدائية ، فإن من هذه تفيد تقريراً
وتمكيناً لا يكونان إذا خلا الكلام منها . إنها تفيد تقرير الحكم به وقوع هلاك تلك القرون في ذلك
الزمن السابق على زمن قارون - تقريراً يرى معه كان ذلك الهلاك كان ناشئاً من تلك القبلية الزمنية
منبسطاً عنها ، وذلك . لا تفيد كلمة « قبله » وحدها . وأيضاً فإن « من » تفيد أن الإهلاك قد كان
في الزمان الماضي كله ، وثبت من ابتداء القبلية وأولها بخلاف كلمة « قبله » وحدها ، فإنها تصلح
بوقوع الإهلاك في بعض الزمن الماضي .

إلا يعلمها » ، « هل خالق غير الله يرزقكم »
« ما ترى في خلق الرحمن تفاوتاً » :

يمكن أن يقال ذلك ولا يكون فيه
ما يخل بالمعنى الأصلي المقصود من التركيب
لأن هذا المعنى الأصلي لا يتوقف على شيء
من معاني «من» الأصلية .

وهذا بخلاف الحال في «من» التي أريد
بها معنى من معانيها الأصلية ، فإنه في قوله
تعالى : أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله
من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا
لا يمكن أن يستغنى عن «من» في قوله
سبحانه : «من القرون» فيقال : «أو لم يعلم
أن الله قد أهلك من قبله القرون» . فإنه يختل
به المعنى المراد كما هو ظاهر . ومثل ذلك
يقال في بقية الآيات التي وردت فيها «من»
دالة على معنى من معانيها الأصلية .

هذا وقد اشترط جمهور البصريين في
«من» الزائدة ثلاثة شروط :

الأول : أن يتقدم عليها نفي أو نهي أو
استفهام بهل :

فالنفي كما في قوله تعالى : وما تسقط
عن ورقة إلا يعلمها .

والاستفهام كما في قوله سبحانه «ما ترى
في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر
هل ترى من فطور» فإن من الثانية
وهي التي في قوله سبحانه «من فطور» زائدة
وقد وقعت بعد الاستفهام بهل أما الأولى التي

في قوله من «تفاوت» فهي زائدة أيضا
لكنها وقعت بعد نفي :

والنهي مثل قوله : لا يقيم من أحد .

وألحق الفارسي بهذه الثلاثة «الشرط» كما
في قول الشاعر :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

الشرط الثاني : أن يكون محورها نكرة

الشرط الثالث « أن يكون فاعلا أو
مفعولا به أو مبتدأ .

وخالف في هذه الشروط الأنخض والكوفيون :

سم إن «من» الزائدة هذه لا بد أن تفيد
أحد أمرين يتمثل فيها المعنى العام الذي
تزداد له حروف الزيادة ، وهو التوكيد :

الأمر الأول : التنصيص على العموم
المراد من التركيب ونفي احتمال غيره ؛ فإنه
إذا قال قائل :

«ما جاءنا من رجل» فإنه يفيد التنصيص على
عموم النفي ، أي على نفي الجنس وعدم احتمال
شيء آخر ؛ وذلك أن العبارة قبل دخول
«من» - وهي ما جاءنا رجل - تحتمل
نفي الجنس وأنه لم ينجيء أحد من جنس
الرجال ، كما تحتمل نفي الوحدة وأنه لم
ينجيء رجل واحد ، وذلك لا يمنع أن
يكون الذي جاء أكثر من واحد من الجنس
ولهذا يمكن أن يقال في هذه الحالة :
«ما جاءنا رجل بل رجالان» ؛ لكنه لا يمكن

أن يقال ذلك مع رجود « من » ، لا :
العبارة معها تنص على نفي الجنس من غير
احتمال غيره .

الأمر الثاني : توكيد العموم ، وذلك
نحو قولك : « ما جاءنا من أحد » أو « من
ديار » ، فإن العبارة قبل دخول « من »
تفيد العموم من غير احتمال شيء آخر ، من
حيث إن كلا من « أحد » « وديار » بعد
النفي يفيد العموم واستغراق النفي ، فإذا
زيدت « من » في العبارة أفادت توكيد هذا
العموم :

قد يقال : إنه مفهوم ومعقول أن
تكون « من » زائدة إذا أتى بها في تركيب
لإفادة توكيد العموم متى كان هذا العموم
مستفادا من غيرها ، كما في قولك :
« ما جاءنا من أحد » ؛ فإنه لو قيل :
« ما جاءنا أحد » كان ذلك يفيد الحكم بعدم
مجيء كل واحد ممن يتأتى منه المجيء ، سواء
أكان رجلا أم امرأة ، لأن كلمة « أحد »
بعد النفي تفيد استغراق النفي وشموله الجنس
كله ، فإذا أدخلت « من » في التركيب
فإنها لا تفيد شيئا زائدا على المعنى المستفاد
بدونها ، كما أنها لا تكون حينئذ مستعملة
في شيء من معانيها الأصلية الوضعية ، فتكون
زائدة لتوكيد العموم :

ولكن كيف تكون « من » زائدة لإفادة
التوكيد في قولك : « ما جاءنا من رجل » --
وهو ما يفيد التنصيص على العموم أى يفيد
العموم نصا ؟

إنه لو جرد التركيب من كلمة « من »
وقيل « ما جاءنا رجل » كان هذا النفي
محتملا نفي الوحدة كما يحتمل نفي الجنس ؛
أى يحتمل أن يكون المقصود به نفي مجيء
رجل واحد ، كما يحتمل أن يكون المقصود
به نفي مجيء كل رجل ، أى في مجيء الجنس
كله ، فإذا أدخلت في التركيب كلمة « من »
فإنها تزيل احتمال الوحدة وتجعل التركيب
نصا في نفي مجيء جنس الرجال ، وحينئذ
لا يصح أن يقال إنها زيدة للتوكيد ، لأن
التنصيص على العموم معنى جوهرى أساسى ،
وهو لم يستفد من غيرها حتى يصح أن
يقال إنها هنا زائدة للتوكيد .

« والجواب » أن التركيب الذى قيل ان
« من » قد دخلت فيه للتنصيص على العموم
يمكن أن يقال إن « من » قد زيدت فيه
للتوكيد ؛ وذلك أنه إذا قيل : « ما جاءنا
رجل » - مع إطلاق لفظ « رجل » وعدم
تقييده بالواحد - فإنه يدل دلالة ظاهرة
من غير شك على إرادة الجنس ، فيكون نفي
المجيء فيه منصبا على جنس الرجال واحتمال
أن النفي فيه وارد على الواحد هو احتمال
ضعيف يحتاج في إرادته إلى دليل خاص ؛
وعلى هذا إذا دخلت « من » في هذا التركيب
الذى هو ظاهر في العموم صح أن يقال إنها
قد زيدت لتوكيد هذا العموم .

ويشهد لذلك قوله تعالى : « وما أرسلنا
من رسول إلا بلسان قومهم ليبين لهم » (٤
إبراهيم) : وقوله تعالى : « وما أهلكنا

من قرية إلا ولها كتاب معلوم» (٤ الحجر) وقوله سبحانه : «وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون» (٢٠٨ الشعراء) ، فإنه من غير المعقول احتمال أن يكون النفي في هذه الآيات وارداً على الوحدة . وألا يكون منصباً على الجنس . وعلى هذا لا يكون فرق بين هذه الآيات وأمثالها من كل تركيب وقعت فيه النكرة . سياق النفي أو الاستفهام وبين قوله تعالى - في شأن المنافقين -

«وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا» (١٢٧ التوبة) ؛ فإنه ليس المعنى في ذلك على نفي الوحدة ، وإنما هو في جزمها منصب على الجنس .

وهنا يقال - وهو المقصود دائماً من البحث في حروف الزيادة - ما السر في أن «من» الزائدة بعد النفي مثلاً تفيد استغراق النفي وتدل نصاً على العموم أو تفيد تأكيد دلالة العموم ؟ وهل ذلك ثابت لها لمجرد أنها كلمة زيدت في التركيب من غير أن تكون مشعرة بشيء يناسب معنى الاستغراق والعموم ؟

«والجواب» أنه غير جائر في حكمة القرآن أن يكون مجرد زيادة الكلمة في التركيب مفيداً تأكيد معنى تضمنه هذا التركيب من غير أن يكون في تلك الكلمة إشعار أى إشعار بما يناسب المعنى المراد توكيده . وذلك أن الكلمة الزائدة إذا

أخذت على هذا الوجه كانت لغواً، وكانت - كما يقول بعض النحاة - دخولها في الكلام وخروجها منه على سواء ، فلا يعقل حينئذ أن يكون مفيدة تأكيداً أو غير تأكيد ، لأنها تكون هي واللفظ المهمل الذي لم يوضع لمعنى أصلاً على سواء أيضاً .

إن القول الحق في هذا هو أن الكلمة التي تزداد في تركيب لتوكيد ما تضمنته من معنى لا بد أن تكون فيها ناحية إشعار بما يناسب ذلك الذي يراد توكيده .

فكلمة «من» إذا زيدت في تركيب لإفادة التوكيد فلا بد أن يلمح بها إلى أصل تصلح من طريقه أن تحقق هذه الفائدة فإذا كانت الكلمة المزيدة كما قلنا فيما سبق منسلخة عن معانيها الوضعية كلها بحيث لا تفيد شيئاً منها إفادة أصلية أساسية فإنها - مع ذلك ومن أجل إفادة التوكيد - لا بد أن تشير - ولو من طرف خفي - إلى أصل من تلك المعاني يكون مناسباً للمعنى المراد توكيده .

ونرى أن أقرب معاني «من» وأقواها على تحقيق التأكيد هو معنى «التبويض» .

فقول الله تعالى : «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها» قد جاءت فيه كلمة «ورقة» نكرة في سياق النفي ، فصارت عامة شاملة كل ما يطلق عليه هذا اللفظ من ورق

الشجر : فكل ورقة تسقط من شجرة
فإن الله عليم بها وبشكلها ولونها
وبسائر صفاتها وأحوالها ، وكذلك
هو سبحانه عليم بسبب سقوطها وزمانه
ومكانه ، لا يعزب عن علمه شيء
من ذلك كله :

وقد زيدت كلمة « من » قبل كلمة
« ورقة » فأفادت تأكيد هذا العموم
والشمول ، من حيث إنها في الأصل
موضوعة لمعنى التبعية ، فهي في
موطن زيادتها تلمح إلى هذا الأصل
لتؤكد من طريقه أن علم الله تعالى محيط
بكل ورقة مهما كانت صغيرة ضئيلة ؛
ففي هذه الآية الكريمة لم يقصد بكلمة
« من » معنى التبعية قصدا ذاتيا يكون
الحكم فيه على بعض من الورقة وجزء
من أجزائها ، لم يقصد ذلك قصدا
ذاتيا وإنما جعل رمزا وإشارة . إلى ما قد
تكون عليه الورقة الساقطة من الشجرة ،
بن الصغ والدقة والضئيلة ، فيكون المعنى
أنه مهما تكن تلك الورقة صغرة ضئيلة
فلما لا تعزب عن علم الله المحيط بكل شيء .

• • •

هذا — وإن التمثيل بقوله تعالى :
« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » —
هو جملة من آية ٥٩ من سورة الأنعام —
يدعونا أن نعود إلى هذه الآية لنفصل

القول فيها وفي بقية ماورد فيها بعد تلك
الجملة ، وهو شيء لا يخرج عن موضوع
« من » الزائدة الذي الكلام فيه : .

والآية بتمامها هي قوله تعالى :
« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو
ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة
إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات
الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب
مبين » (٥٩ الأنعام) .

وقد عرفنا أن « من » في قوله سبحانه .
« وما تسقط من ورقة » زائدة من حيث
إن الحكم الأصلي المراد من التركيب
يستفاد من الجملة مع تجردها من ذلك
الحرف ، فإنه لا فرق بين أن يقال :
« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » ،
وأن يقال : « وما تسقط ورقة إلا يعلمها »
فكلمة « ورقة » هي الفاعل في كلا التركيبين
والاستثناء ومفرغ في كليهما ، وهو
استثناء من عموم الأحوال . والمعنى :
وما تسقط ورقة في حال من الأحوال إلا في
حال العلم بها ، أي لا تسقط إلا وهي
معلومة لله تعالى :

« قد يقال » : كيف يكون ما بعد
« إلا » حالا . هو يقتضى وقوع الحال
من النكرة وهي « ورقة » ، ذلك غير
سائق ؟

« والجواب » أنها نكرة أريد بها
العموم من حيث قد سلط على ذلك ، لا

والسر في أن النكرة لايجيء منها الحال
أنها في أصل وضعها تدل على فرد
منهم شائع في غيره من أفراد الجنس أو النوع

أما إذا كانت النكرة مراداً بها جميع
الأفراد كالنكرة في سياق النفي فإن
هذا مسوغ مجيء الحال منها لزوال
الإبهام ، وكذلك إذا كانت موصوفة
بوصف من شأنه حصر المراد والإحاطة
به فإنه يكون «أيضاً» مسوغاً لمجيء الحال منها .

ثم إن «من» هذه قد أفادت إزيادتها
توكيد العموم ، ولم تكن لإفادة العموم
في أصله ، لأن هذا العموم مستفاد «من»
غيرها من حيث قد سلط النفي على
النكرة كما علمنا .

«وقد يقال أيضاً» : «إذا كانت من
المحدث عنها بهذه المثابة ، تفيد توكيد
العموم ، وذلك معنى مهم مما يقصد إليه البلغاء ،
ويعتنون به وبالوسائل التي تؤدي إليه
فكيف يحكم بأن اللفظ الذي يدل عليه
وبحقيقته هو من الزيادات في التركيب
وليس من الألفاظ الأصلية فيه ؟

«والجواب» أن العلماء اتفقوا
على أنه إذا وردت في التركيب كلمة
قد جردت من معانيها الوضعية كلها ،
فلم تستعمل في شيء منها على أن

يكون جزءاً أساسياً من المعنى الأصلي
المراد من التركيب فإنها تعتبر فيه زائدة :
فكلمة «من» إذا وردت في تركيب
غير مستعملة في شيء من معانيها
الوضعية ، كالأبتداء والتبويض والبيان
ومألها فإنها تكون زائدة مع أنها
في هذا التركيب تكون مفيدة معنى
من المعاني الثانوية المهمة ، التي يعنى
بها البلغاء ويقصدون إلى تحقيقها كالعموم وتوكيد
العموم . هذا ما اتفق عليه العلماء : أن
تكون «من» في هذه الحالة زائدة : فإذا
كان من الناس من لا يرضى أن
يقال بوقوع كلمة زائدة في شيء
من آيات القرآن الكريم فإن المسألة
حيث لا تعدو أن تكون مسألة اصطلاح
ومعلوم أنه لا مشاحة في الاصطلاح
وذلك أنه لا خلاف بين الطرفين في
الحقيقة ، والاختلاف بينهما إنما هو
في التسمية : أما المعنى فهم فيه جميعاً
على وفاق تام

ومن هذا يعلم أن القول في «ن»
الزائدة في قوله تعالى : «وماتسقط
من ورقة إلا يعلمها» بين واضح لا إشكال
فيه .

إنما الإشكال فيما يقرره كثير من العلماء
في بقية الآية وما جروا عليه في إصراها (١) :

(١) يراجع تفسير آية ٥٩ من سورة الأنعام الزهخشري والنسفي والجلال السيوطي وابن السعدي والاكوسي .

فقد قالوا - في إعراب قوله تعالى :
« ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس »
إلا في كتاب مبین - : إن كلمة « حبة »
المحرورة في قراءة « حفص » معطوفة على
« ورقة » وداخله في حكمها ، أي أنها متأثرة
بالعامل الذي سلط على « ورقة » ، ثم يلحقها
الاستثناء الذي لحق هذه : فيكون معنى
« ولا حبة في ظلمات الأرض » : ولا تسقط
حبة في ظلمات الأرض إلا يعلمها .

وقالوا مثل ذلك في كلمتي « رطب
وياابس » ، فيكون المعنى فيهما : « ولا يسقط
رطب ولا يابس إلا يعلمه » .

وهذا تفسير فيه تكلف ، وإعراب فيه
انحراف عن الحادة ، فهو لا يستقيم به الأمر
مع ما يتبادر إلى الذهن ، وينطبع في النفس
من المعنى الذي تفيده تلك العبارات البليغة
الواردة في الآية الكريمة : « ولا حبة في ظلمات
الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب
مبین » .

إنه إذا كان ورق الشجر يصبح أن يوصف
بالسقوط ، كما هو معهود ، وكما يدل على
ذلك قوله تعالى : « وما تسقط من ورقة »
فهل يصبح أن يكون مثل ذلك في « الحبة »
تكون في ظلمات الأرض ؟ هل يمكن أن
يقال في جانب هذه الحبة : وما تسقط حبة
في ظلمات الأرض ، كما قيل في الورقة تسقط
من الشجرة ؟ ثم إذا كان معلوما أن الورقة
يكون سقوطها من الشجرة فمن أين يكون
سقوط الحبة التي في ظلمات الأرض ؟

وإذا أمكن أن يقال ذلك في جانب الحبة
أيضا مع ما فيه من التكلف فإذا يصنع
في كلمتي « رطب وياابس » وقد وردتا
في الآية مورد الحبة ؟ هل يصح أن يقال
فيهما : « وما يسقط رطب ولا يابس » :

هذا شيء نراه بعيدا وفيه تكلف شديد :
ثم ماذا يكون - بعد ذلك كله - موقع
قوله تعالى : « إلا في كتاب مبین » بعد قوله
سبحانه : « إلا يعلمها » الذي هو استثناء
منسحب بالضرورة على الحبة والرطب
والياابس ، بحكم عطفها على « ورقة » على
ما جرى عليه أولئك العلماء ؟

إن الكلام - على ما جروا عليه في التفسير -
يتم عند قوله تعالى : « ولا رطب ولا يابس »
فهو كلام مستوف أركانه ، ومشمول على
الحكم بتحقيق علم الله تعالى بجميع ما ذكر
في الآية من أحوال الورقة والحبة والرطب
والياابس ، وذلك هو ما يفيد قوله تعالى :
« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة
في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس » ،
فإن معناه أنه لا يكون شيء من ذلك إلا معلوما
لله تعالى وإذا كان الأمر كذلك فكيف يفهم
قوله تعالى في ختام الآية : « إلا في كتاب
مبین » ؟ وكيف يقع موقعا مناسبا مما قبله ؟
وعلى أي وجه إعرابي يتصل به ؟ إن طريقة
أولئك العلماء في تفسير الآية وإعرابها تجعل
عبارة الاستثناء هذه قلقة في موضعها ،
منعزلة عما قبلها . وغاية ما استطاع فرقى
منهم أن يوجهوا به ذلك الاستثناء أنهم قالوا إنه

بديل من الاستثناء الأول : بديل اشتمال إن
أريد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ ، وبديل
كل من كل إن كان المراد به علم الله تعالى .

أما « الزمخشري » فقد اكتفى بأن قال :
إن الاستثناء الثاني هو كالتكرير للاستثناء
الأول ، لأن معنى « إلا يعلمها » هو معنى
« إلا في كتاب مبين » .

وقد تابعه في ذلك فريق من المفسرين .

ورأينا في هذه الطريقة أنها — مع كونها
عسرة ، وفيها ، تكلف لا يزول بها قلق ذلك
الاستثناء الثاني في موضعه ، ولا ضعف ارتباط
بما قبله :

النتيجة

وننتجة البحث أنه من أجل تلك الوجوه
التي أشرنا إليها : وجوه الضعف التي ينطوى
عليها تفسير أولئك العلماء للآية — يكون
من الواجب العدول عن ذلك التفسير إلى شيء
آخر يتفق مع بلاغة القرآن وروعة بيانه
وقوة نظامه .

والرأى في ذلك أن العطف الوارد في الآية
ليس من عطف المفردات ، كما جرى عليه
أولئك العلماء ؛ فليست كلمة « حبة » معطوفة
على « ورقة » . ولا كلمة « رطب » أو كلمة
« يابس » معطوفة عليها كذلك ؛ وإنما الكلام
من عطف الحمل بعضها على بعض .

فقوله تعالى : « وما تسقط من ورقة
إلا يعلمها » كلام تام ، وجملة مستقلة لا يلحق
بها شيء من المفردات التي بعدها :

وقوله سبحانه : « ولا حبة في ظلمات
الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب
مبين » — جملة أخرى معطوفة عليها :

وقد جاء الحكم في هذه بطريقة القصر :
« بالاستثناء بعد النقي » كما جاء في الأولى

وهذا الذي نقوله هو الذي تقتضى به بلاغة
القرآن وبراعته ، وتحقق به مفردات أصول
اللغة وقواعد النحو :

وهو — أيضا — الذي تشهد له قراءة
أخرى متواترة ، ترفع كلمات : « حبة
ورطب وياابس » ؛ فهي مرفوعة على أنها
مبتدأ ، والخبر هو ما تضمنه الاستثناء ،
وقد قيل : إن القرآن يفسر بعضه بعضا ؛
ولذا فما أجمل أن تفسر قراءاته ، بعضها
ببعض ؟

« لكن قد يقال : إنه ظاهر على قراءة
الرفع أن تكون الجملة اسمية من مبتدأ
وخبر فكيف يكون الأمر على قراءة الخبر ؟

والجواب « أنه يكون كذلك ؛ فإن تلك
الكلمات المحرورة مرفوعة المحل ، على تقدير
من « الزائدة التي دل عليها التصريح بها
في الجملة السابقة وتقدير الكلام : « ولا
من حبة في ظلمات الأرض ولا رطب
ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

فكلمة حبة الخردودة بحرف الجر الزائد المقدّم:
تعرب مبتدأ مرفوعاً تقديرها : وقد
عطف عليها بالجر الظاهر كلمتا «رطب ويابس»،
فدخلتا بذلك في حكم المبتدأ، ويكون الخبر
هو ما تضمنته الاستثناء الذي في آخر الآية
«إلا في كتاب مبين». ونظير هذا قوله
تعالى : وما من غائبة في السماء والأرض
إلا في كتاب مبين (٧٥ النمل) فإن
كلمة «غائبة» وقعت مبتدأ ، وهي مجرورة
ظاهراً بحرف الجر الزائد «من» وخبر المبتدأ
قوله سبحانه إلا في كتاب مبين» وقد عثرنا
— بعد كتابة ما تقدم — على ما يقوى هذا الرأي
ويستأنس به فيه من كلام الزمخشري في موطن
آخر من التفسير ، وهو ما قاله في تفسير
قوله تعالى : « وما يعزب عن ربك من
مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا
أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين»
(٦١ يونس) وهذا نص ما كتبه على قوله سبحانه :
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر : قال رحمه الله :

(القراءة بالنصب والرفع : والوجه
النصب على نفي الجنس ، والرفع على الابتداء
ليكون كلاماً برأسه) ثم قال (: وفي العطف
على محل « من مثقال ذرة » أو على لفظ
مثقال ذرة فتحسباً في موضع الجر
لامتناع الصرف — إشكال ، لأن قولك :
« لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مبين»
« مشكل » . هـ . وهكذا يقرر العلامة
« الزمخشري » أن عطف أصغر وأكبر على
ما قبله عطف مفردات مشكل على كلتا القراءتين

فلا يصح أن يكون رفعهما بطريق العطف
على محل من مثقال ذرة « ، الذي هـ .
المعنى فاعل « يعزب » ، كما لا يصح أن يكون
نصبهما بطريق العطف على لفظ « مثقال » ، ويكون
جرهما بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنهما ممنوعان
من الصرف — لا يصح عطفهما كذلك ،
لأنه يؤدي إلى أن يقال — في تقدير الآية :
وحاصل معناها : « وما يعزب عن ربك
شيء إلا في كتاب مبين » ، أي وذلك شيء
لا يستقيم في الفهم ، ولا ينبغي حمل القرآن
الكريم عليه .

هذا الذي يقرره الزمخشري هنا في آية
«يونس» هو في غاية الدقة والوجاهة.

ومثله ، ما قاله في تفسير آية ٣ من سورة
سبأ ، وهي قوله تعالى : « وقال الذين
كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي
لأتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال
ذرة في السموات ولا في الأرض ولا
أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب
مبين » .

فإنه رحمه الله — قال في تفسير قوله
تعالى : « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » ما نصه :
وقرئ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع
على أصل الابتداء ، وبالفتح على نفي الجنس
كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله « بالرفع
والنصب ، وهو كلام منقطع عما قبله .
ثم قال : فإن قلت : هل يصح عطف المرفوع

على « مثقال ذرة » كأنه قيل : « لا يعزب عنه مثقال ذرة وأدخر وأكبر ، وزيادة « لا » تأكيد النفي ، وعطف المفتوح على « ذرة » بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف كأنه قيل : « لا يعزب عنه مثقال ذرة » ، ولا بمثقال أصغر من ذلك ولا أكبر ؟ « قلت : يأتي ذلك حرف الاستثناء ا. هـ .

هذا كلام الزمخشري « أيضا في آية « سبأ » وهو ليس أقل دقة ولا قوة مما قاله في آية يونس » :

غير أننا نلاحظ أن بين ما قرره في إعراب هاتين الآيتين وما جرى عليه في إعراب آية « الأنعام » التي قدمناها اختلافا ظاهرا ، فإن الوجه الإعرابي الذي اعترض عليه في الآيتين وقال إنه يترتب عليه إشكال أو ياباة الاستثناء هو الذي سار عليه في إعراب آية الأنعام فقد قال هناك ما نصه : « ولا حبة ولا رطب ولا يابس » عطف على « ورقة » وداخل في حكمها ، كأنه قيل : « وما يسقط من شيء من هذه الأشياء ، إلا يعلمه » . وقوله : « إلا في كتاب مبين » كالتكرير لقوله : « إلا يعلمها » ، لأن معنى « إلا يعلمها » ، ومعنى « إلا في كتاب مبين » واحد ، والكتاب المبين علم الله تعالى أو اللوح . ثم قال : « وقرئ » ولا حبة ولا رطب ولا يابس « بالرفع ، وفيه وجهان : أن يكون عطفا على محل « من ورقة : » وأن « يكون رفعا على الابتداء . » وخبره « إلا في كتاب مبين » ، كقولك : « لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار » . ا. هـ .

هذا هو الوجه الإعرابي الذي لم يرض الشيخ الزمخشري أن تجرى عليه آيتا يونس « وسبأ » لما يترتب عليه مما قاله في الموطنين . ونحن نقول : إنه إذا كان لا يرضى أن يكون العطف في هاتين الآيتين من قبيل عطف المفردات . لأنه يترتب عليه إشكال كما عبر بذلك في يونس ، ولأنه ياباه الاستثناء كما عبر بذلك في سبأ : إذا لا يصح أن يقال : « وما يعزب عن ربك شيء إلا في كتاب مبين ولا أن يقال « يعزب عنه مثقال ذرة إلا في كتاب مبين » — نقول إنه إذا كان كذلك لذلك فإنه لا يصح أيضا أن يكون العطف في آية الأنعام من عطف المفردات ، لأنه يترتب عليه ما قلناه من وصف الحبة و الرطب واليابس بالسقوط الذي لا يظهر أن يكون وصفا إلا للورقة التي تسقط من الشجرة ، ولأنه يترتب عليه أيضا تكرير الاستثناء على ذلك النحو غير المعهود في أسلوب القرآن الحكيم : وذلك أن نظم الآية يصير — على ذلك الوجه الإعرابي — هكذا : « وما يسقط من ورقة ولا حبة ولا رطب ولا يابس إلا يعلمه إلا في كتاب مبين » .

على أنه لو كان هذان الاستثناءان قد وردا في الآية هكذا متصلين من غير فصل بينهما لكان الأمر بعض الشيء ، ولأمكن أن يقال : إن الثاني تكرير للأول كما قال الزمخشري أو بدل منه كما قال غيره ، ولكن الفصل بينهما بما جاء في الآية متعلقا بالحبة والرطب واليابس من شأنه أن يبعث ذلك ويجعل

الاستثناء الثاني مرتبطاً بهذه الثلاثة : « . الحبة والرطب واليابس ، وحدها ، ليكون حكماً عليها وحدها . وبذلك لا تكون له علاقة بالاستثناء الأول .

هذا - وعلى أساس ما اخترناه ورجحناه - من أن قوله تعالى : « ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » هو جملة معطوفة على الجملة قبلها وأنه ليس من عطف المفردات - نقول : إنه يمكن أيضاً أن تكون هذه الجملة المعطوفة جملة فعلية على تقدير فعل كينونة مع « من الزائدة » ، ويكون التقدير هكذا : « ولا يكون من حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

غير أنه قد يعترض على هذا الوجه من الإعراب بأن البصريين لا يجيزون باطراد حذف فعل الكينونة ، فإنهم يمنعون حذفه في كل موطن ليس فيه « إن » أو « لو » أو يقولون إن ذلك كما أشار إليه ابن مالك في قوله :

ويحذفونها ويبقون الخبر

وبعد إن ولو كثير إذا اشهر وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن تخرج الآية على ذلك ذلك التعليل . ولكن يجاب عن ذلك بما قررناه غير مرة ونقرره دائماً : أنه لا ينبغي أن يلتزم في إعراب القرآن مذهب طائفة خاصة من النحويين ،

بصرية كانت أو كوفية ، وأنه لم يقل أحد إن القرآن في إعرابه قد نزل على طريقة البصريين . ثم لا ينبغي أن يذهب عاقل متبصر إلى أن نذهب النحاة البصريين هو أصح المذاهب الإعرابية وأرجحها في كل شيء وكل موطن وبغير استثناء فإن الخنوج إلى ذلك يكون من الجهل القاضح .

ويمكن أن يستأنس في هذا المقام بما ورد في الصحيحين - في حديث بدء الوحي من قول « ورقة بن نوفل » : « ياليتني فيها جذعا » بنصب كلمة جذع ، وما قاله الشيخ « الزرقاني » شارح « المنهاج » في ذلك (ج ١ ص ٢١٥) مما حكاه عن « الخطابي » وابن الجوزي - في إعراب « جذعا » بالنصب أنه على تقدير فعل كينونة ، وأن هكذا يجري على مذهب الكوفيين ويكون تقدير الكلام عليه هكذا : « ياليتني أكون فيها جذعا » :

وذلك كما قدر الكوفيون أيضاً قبل الكينونة في قوله تعالى : « ولا تقولوا ثلاثة » ، انتهوا خيراً لكم (١٧١ النساء) فلم يبق لهم قالوا : إنه على معنى « انتهوا يكن خيراً لكم » . ولا شك أن هذا تقدير الصحيح وتخريج قوى جيد للآية الكريمة ﷻ يرجح به مذهب الكوفيين عن مذهب البصريين . والله أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

عبد الرحمن تاج
عضو الجمع الراحل

سيبويه

للدكتور الشيخ محمد الفحام

تَحْيِيَّةٌ

كتب الأدب ، وكتب
التاريخ وكتب الطبقات ،
عن أربعة من النحاة ،

لقب كل منهم بسيبويه وهم :

- أبو بشر ، عمرو بن عثمان ، البصري
- وأبو بكر ، محمد بن موسى ، المصري
- وأبو الحسن ، علي بن عبد الله ، المغربي
- وأبو نصر ، محمد بن عبد العزيز ، الأصبهاني

أربعة من العلماء ، تعددت أسماؤهم ،
وتنوعت كناههم ، ، وتفرقت بلدانهم ،
ولكن جمعهم ، لاشتغالهم بالنحو ، وشهرتهم
به ، لقب واحد : «سيبويه» .

وقبل أن نسلط الأضواء على كل واحد
من هؤلاء العلماء ، إحياء لذكرهم ،
وتنويه بشانهم ، وتقدير فضلهم وإظهار
آثارهم ، نرى أن نعرض لقضية لغوية
عرض لها كثير غيرنا من العرب والمستشرقين .

تلكم قضية لفظة «سيبويه» أصلها وضبطها
ومعناها .

لفظة سيبويه أعجمية فارسية مؤلفة من
كلمتين : « سيب » و «ويه»

ومعنى « سيب » فى اللغة الفارسية «تفاح»
ومعنى «ويه» فى اللغة الفارسية «رائحة» ، ولا تزال
لفظة سيب مستعملة فى الباكستان وفى الهند
فى معنى تفاح . وكثيرا ما سمعت فى كل من
لاهور وكرا تش من بلاد الباكستان ، وفى
فى كل من دلهى وبومباى من بلاد الهند
باعة الفاكهة يقولون : سيب سيب ، وهم
يعنون : تفاح تفاح .

فالترجمة العربية للفظ سيبويه الفارسية
«رائحة تفاح» . لقب بها أول ما لقب
— فيما نعلم — أبو بشر عمرو بن عثمان ، إمام
نحاة البصرة . وهو المراد منها عند الإطلاق
فهى له على سبيل الحقيقة ولغيره على سبيل
التشبيه أو المجاز .

تحقيق معنى لفظ سيبويه :

وما ذكرناه من أن معنى كلمة سيبويه
هو رائحة تفاح هو ما نقلته لنا كتب الأدب
وكتب التاريخ وكتب اللغة ، وكتب النحو .

وفى مقدمة هذه الكتب « القاموس
الحيط » للفيروز آبادى ، « لسان العرب »
لابن منظور و « وفيات الأعيان » لابن خلكان
« ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء » لابن

الأنبازى و «معجم الأدباء» لياقوت و «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطى و «أخبار النحويين البصريين» للسيرافى و «الفهرست» لابن النديم و «مفتاح السعادة» للمولى أحمد بن مصطفى و «حاشية الأمير على المغنى» . وغير ما ذكرنا كثير .

تعقيب بعض المستشرقين (فريتس كرنكو) :

ولقد عقب بعض المستشرقين الألمانين «فريتس كرنكو» في مقاله المنشور بدائرة المعارف الإسلامية بعنوان «سيبويه» على ما كتبه المؤلفون العرب من أدباء ومؤرخين ولغويين ونحويين عقب على كلمة «سيبويه» من ناحيتين : من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى ، أما من ناحية اللفظ فهو يقول : إن النطق الأصلي الفارسي لهذه الكلمة هو سيبويه لا سيبويه وأما من جهة المعنى فهو يقول : إن معنى «سيبويه» «تفاحة صغيرة» «لرائحة تفاح» .

أما التعقيب من الناحية اللفظية الذي ملخصه أن لكلمة سيبويه في الفارسية نطقاً يغاير نطقها في لسان العرب فسلم ونحن لانكره ، بل لقد ذكر ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» (جزء ٥٠ ص ٥٥٠) بعد أن قال : «هكذا يضبط أهل العربية هذا الاسم ونظائره مثل نفطويه وعمرويه وغيرهما . والعجم يقولون : سيبويه بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الياء المثناة من تحتها ، لأنهم يكرهون أن يقع في آخر الكلمة «ويه» لأنها للندي» .

ولابأس علينا نحن الناطقين بالضاد أن ننطق بهذه الكلمة وأمثالها على وجه يخالف نطقها في لغة للعجم فليس بدعاً في اللغات أن تستعار كلمة من لغة إلى أخرى فيدخل فيها تغيير وتبديل . تغيير حرف بحرف أو حركة بحركة أو سكون فلكل مستعير أن يتخير من الحروف والحركات ما عذب على لسانه ، وخفف على سمعه ، وقيل في ذوقه ، واقتضته قواعد لغته .

تشبيه الكلمات في اللغات بالأفراد في الامم :

وقد شبه علماء فقه اللغة الكلمة تستعار من لغة إلى أخرى ، «بالفرد من الأمة» يخرج من أمته ليدخل في أمة أخرى ، يتجنس بجنسيتها ، ويصطبغ بصيغتها ، يعتاد عوائلها ، ويحافظ على تقاليدها ، ويتكلم بلغتها ، ويخضع لأحكامها وقوانينها ، فإذا هو واحد من أبنائها ، وإذا الصلة بينه وبين القديم قد انقطعت .

ولقد نطق العرب قديماً باللفاظ أعجمية كثيرة وعربوها ، وأنجزوها بالقواعد لغتهم وقوانينها اللغوية من صرفية ونحوية ، فجازفوا منها حروفاً وأبدلوا منها حروفاً بأخرى وجمعوها جميع الأسماء العربية ، وثبوتها ، وصيغروها ، ونسبوا إليها ، وعاملوها معاملة الألفاظ العربية . لقد عربوا SANTAMARIA الأسبانية وهي بالفرنسية SANTEMARIE وهي بالعربية «السيدة مريم» اسم بلد من بلاد الأندلس الغربية ، فنطقوا بها

شنتمريه» ونسبوا إليها فقالوا «استتمري» ومنها
الأعلم الشتمري أبو الحجاج يوسف بن سليمان
ابن عيسى المتوفى بإشبيلية سنة ٤٧١ هـ شارح
شواهد كتاب سيويه « فقلبوا السين شينا
وزادوا ياء النسب في آخر الكلمة، كما تزداد
في الكلمات العربية البحتة إذا نسب إليها.
وهاهم أولاء الفرنسيون قد استعاروا من
اللغة العربية ألفاظا كثيرة لا تحصى عدداً
فاصطبغت بصبغة فرنسية، وتصرفت
تصرف الكلمات الفرنسية، وعملت معاملةً لها
فأصبحت واحدة منها.

لذكر منها على سبيل المثال كلمة «قنطار»
فقد استعارها الفرنسيون كما قال لاروس في
معجمه من اللغة العربية، فنطقوا بها كـتال
CANTAL فأبدلوا القاف كافاً، وكسرتها
فتحة وأبدلوا الطاء تاء، والراء لاماً. ودخلت
الكلمة بذلك في عداد الكلمات الفرنسية
المختومة «بأل» فجمعت جمعها Quantaux
بعد أن كانت تجمع في العربية على قناطير.
كما يجمع Journal على Cheval Journaux
general على generaux على Chevaux
وهكذا

وأما التعقيب على المعنى فهو ما أدهشني حقاً
فانه عندي خبر جديد وغريب يناقض ما هو
في حكم الجمع عليه في كتبنا بين علماء
اللغة العربية من أن معنى «سيويه» هو رائحة
التفاح لا تفاحة صغيرة.

ولهذا قد عولت عملاً بقوله تعالى : «
فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»

عولت على سؤال العلماء بفقهاء اللغة الفارسية
سألت كثيراً منهم وفي مقدمتهم الأستاذ الفاضل
«منشي زاده» أستاذ الأدب الفارسي بجامعة
الإسكندرية - ورب الدار أدرى بما فيها -
فأجابوني جميعاً بجواب واحد : أجاوبوني
بما يوافق كلام ذلكم المستشرق

لارائحة تفاح . فلعل مانقلته لنا كتب اللغة
من باب الخطأ المشهور أو لعل هذه الكلمة
(ويه) لها استعمالان في اللغة الفارسية فهي
تستعمل تارة بمعنى رائحة وأخرى أداة
تصغير .

ونقل ياقوت في كتابه «معجم الأدباء»
جزء ١٦ ص ١١٥ قولاً آخر غريباً عن
ابن خالويه وملخصه أن سيويه مؤلفة
من كلمتين «سي» و«بويه» وأن معنى
«سي» ثلاثون ومعنى «بويه» رائحة فعنى
سيويه مع هذا ثلاثون رائحة ومثل هذا قال
الزبيدي في كتابه «طبقات النحويين
واللغويين» .

ثم قال ياقوت : ولم أر أحداً قال ذلك
غير ابن خالويه .

ولقد ورد على لسان بعض العرب النطق
الفارسي في سيويه وأمثاله « مثل نبطويه
وخالويه وعمرويه وخارويه وشيزويه ودرهستويه

من ذلك قول ابن بسام في شعر له
يذم فيه نبطويه فيه (توفي في بغداد
سنة ٣٠٣) :

رأيت في النوم أبي آدم
صلى عليه الله ذو الفضل

فقال : أبلغ ولدي كلهم
من كان في حزن في سهل

بأن حوّا أمّهم طالق
إن كان نبطويه من نسلي

قال السيوطي في كتابه بغية الوعاة . في
طبقات اللغويين والنحاة . ص ١٨٧ بعد أن
نقل هذا الشعر مانصه : قلت هذا : اصطلاح
لأهل الحديث في كل اسم هذه الصيغة ، وإنما
عدلوا إلى ذلك لحديث ورد : إن «ويه» اسم
شيطان ، فعدلوا عنه كراهة له .

على أنه قد ورد نبطويه على النطق العربي
في شعر محمد بن الحسن بن دريد توفي
سنة ٣٢١ هـ يذمه فيه :

لو أنزل الوحي على نبطويه
لكان ذاك الوحي سخطا عليه

وشاعر يدعى بنصف اسمه
مستأهل للصنع في أخذ عيئه

أحرقه الله بنصف اسمه
وصيّر الباقي صراخاً عليه

وكان هذا الشعر من ابن دريد بعد أن
قال فيه نبطويه :

ابن دريد بقرة
وفيه عي وشرة
ويدعى من حمقه

وضع كتاب الحمهرة

وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره

سيبويه الأصفهاني :

أما سيبويه الأصفهاني : « أبو نصر محمد بن
عبد العزيز » فقد ذكره السيوطي في كتابه
« بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٦٧ » :

وبعد أن ذكر نسبه قال : قال يحيى
بن منده في تاريخ أصبهان : هو حسن الأدب
أحد وجوه العلم ، عالم باللغة والنحو : حدث
عن ابن فارس وغيره .

وقال القفطي في كتابه : « إنباه الرواة
على أنباه النحاة » (ج ٣ ص ٢٦٩) : قال ابن
منده : وأنشدنا أبو نصر الملقب بسيبويه قال :
وأنشدنا أبو الحسين أحمد بن فارس
عليه رحمة الله :

إذا كنت في حاجة مرسل
وأنت بها كلفت مغرّم
فأرسل حكيمًا ولا توصه
وذاك الحكيم هو الدوهم
هذان البيتان تشطير لبّيت قديم :

إذا كنت في حاجة مرسل
فأرسل حكيمًا ولا توصيه

وقد ألقى هذا الخبر شعاعاً من نور على تاريخ سيويه الأصفهاني فقد علمنا منه أنه لقي ابن فارس وسمع منه ، ومعلوم أن ابن فارس كان يعيش في القرن الرابع الهجري وأنه توفي سنة ٣٩٥ هـ فعرفنا من ذلك (على الأقل) أو (على الأكثر) أن سيويه الأصفهاني كان يعيش في القرن الرابع الهجري .

وعيثاً حاولت إذ أردت الوقوف على شيء من تاريخ سيويه الأصفهاني ، ومن أخباره وآثاره العلمية في مكان وجودها فتاريخ أصبهان لابن منده (أبي زكريا يحيى ابن عبد الوهاب المتوفى سنة ٥١٢ هـ) الذي ينقل عنه كثيراً القفطي والسيوطي لا وجود له بمصر على ما وصل إليه يحيى - وتاريخ أصبهان لأبي نعيم قد أغفل ذكر نحوي أصبهان الملقب بسيويه .

تاريخ أبي نعيم مجلدان طبع في لندن سنة ١٩٣١ وبدار الكتب ثلاث نسخ بأرقام (٤٧٣٠ ، ٤٧٣١ ، ٤٧٣٢) تاريخ .

سببوية المغربي :

وأما سيويه المغربي : أبو الحسن على ابن عبد الله بن إبراهيم الكوفي المغربي المالكي النحوي فقد ولد في أوائل القرن السابع الهجري ، وتوفي بالقاهرة يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٦٦٧ هـ وكان النحو يغلب عليه حتى في غزله : ومن شعره :
عذبت قلبي بهجر منك متصل
يا من هواه ضمير غير منفصل

ما زال من غير تأكيد صدودك لي
فما عدواك من عطف إلى بسدل

ولمحمد بن طيفور النحوي شعر كهذا
أزال الله عنكم كل آفة
وسد عليكم سبل المخافة
ولا زالت نوائبكم عليكم
كنون الجمع في حال الإضافة

سببوية المصري :

تاريخ ميلاده ووفاته
وأما تاريخ سيويه المصري فهو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي ، ولد بمصر سنة ٢٨٤ هـ أربع وثمانين ومائتين ، وتوفي بها في صفر سنة ٣٥٨ هـ ثمان وخمسين وثلثمائة وعمره ٧٤ أربع وسبعون سنة قبل دخول القائد جوهر مصر بستة أشهر .

تأسف القائد جوهر لوفاته

وقد تأسف القائد جوهر لما ذكرت له أخباره وقال : لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز - صلوات الله عليه - في جملة الهدية .

فقد كان - رحمه الله تعالى - متحلياً بصفات المتقدمين والمتصدرين ، عالماً بمعاني القرآن ، وقراءاته ، وغريبه وإعرابه ، وأحكامه ، عالماً بالحديث ومعانيه ، وغريبه ، والرواة .

ويعرف من النحو والغريب ما لقي من أجله بسيويه .

لقد جمع بين شارات الزاهدين الورعين
الصالحين وأدوات المتأدبين وفكاهة المنادمين ؛
وجالس الإخشيد ووزيره ، وكان مقرباً منهما .

شهادة استاذ له :

وكان مقبلاً على العلم ، شديد الرغبة
في التحصيل . أدرك ذلك منه أستاذه :
أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ هـ
فقال له يوماً : « لو كان كل من سمع مني
مثلك لما استحلت أن أكرم وكنت أنا أمضي
إليهم » .

نقد سيبويه المصري المتنبي في شعره :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بد
فقال : هذا كلام فاسد ، لأن الصداقة
ضد العداوة (فلا تجتمعان) والصداقة
من الصديق ولو كان قال :
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى
عدواً له ما من مداراته بد
لكان أحسن وأجود .

ومن شعره في الوعظ :

من لم يكن يومه الذي هو به
أفضل من أمسه ودون غسده
فالموت خير له وأفضل من
حياة سوء تفت في عضده

وله شعر يجري على أسلوب ذلكم العصر
الذي كان يعيش فيه والذي كانت فيه ريح
الأدب راكدة في مصر .

طائفة من شعره :-

فن شعره في الشكوى ، والحث على طلب
العلم ، وحرية البحث والنظر وكان قد أرسلها
إلى أستاذه أبي جعفر الطحاوي :

غاض الوفاء وساءت عشرة الناس
واستحكم اليأس من مرضي جلاًس
إلا صباية أقوام كأنهمو
مثل الجواهر في أحجار أرماس
فما سبيل من الدنيا نهم به
إلا وأرجاؤه مخشية الباس

أما سبيل اطراح العلم فهو على
ذی اللب أعظم من ضرب على الراس

فإن سلكت طريق العلم تطلبه
بالبحث أبنت بتكفير من الناس

وإن طلبت بلا بحث ولا نظير
لم تضح منه على اتفاق إمسايس
وإن ذهبت بلا علم ضللت ولم
تعرف رشادك من غي وإركاس

وإن قعدت إلى الدنيا لتوثرها
أضعت دينك في فقر وإيساس

وإن بقيت بلا علم ولا نشب
ولاتقي كنت من أشباه نسناس

فاستر لنفسك إذ حال الأمور كذا
ستر امرئ عالم بالأمرقياس

واختر لنفسك ما زادت فواضله
على نواقصه تختار بقسطاس

واقصد إلى العلم لا تبغى به بدلا
فالعلم من أجله كونت في الناس

وانبذه مقالة من ينهالك عن ظلم
نبذ الطبيب لداء القرحة الآسى

فن يعش في أصبا من علمه بكذا
قالوا يكن منه في شك والباس

واطلب لنفسك ماعفت مكاسبه
وصان نفسك عن ذل والد اس

ولا تغرنك الدنيا وزينتها
فإنها فتنة تطغى بوسواس

وقد جمع الحسن بن إبراهيم بن زولاق
المتوفى في ٢٥ ذي القعدة سنة ٣٨٦ معاصر
سيبويه المصرى وصديقه ومؤرخ مصر في
القرن الرابع الهجرى ، أخبار سيبويه المصرى
ونوادره وشعره ونثره في كتاب سماه ،
«أخبار سيبويه المصرى» ، ومن هذا الكتاب
نسخة بخط المؤلف نفسه «الحسن بن زولاق»
يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجرى وهى
من أنفس ماتحويه دار الكتب المصرية
بالقاهرة لأنها تعتبر أقدم مؤلف في الأدب
الإسلامى المصرى من القرن الرابع الهجرى ،
ولأنها بخط المؤلف نفسه ، ويرجع تاريخها
لنحو ألف عام ، وقد طبع لأول مرة
سنة ١٣٥٢-١٩٣٣م وصدرت تلمذة للأستاذ :
محمد عبد الله هنان المحامى .

سيبويه البصرى :

وأما سيبويه البصرى - وهو في الحقيقة
موضوع كلامنا وباعث رغبتنا في الحديث
- فهو إمام البصريين وشيخ النحاه

أجمعين . وأول من اتعب بهذا اللقب ،
فما نعلم .

وهو عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بنى
الحارث بن كعب ثم مولى آل الربيع بن زياد
الحارثى من أصل فارسى ولم يؤد مصداق ما ،
من المصادر التى بين أيدينا على كثرتها
على هذه الأسماء الثلاثة : عمرو بن عثمان بن
قنبر ولم يختلف اثنان في ضبط اسمه
واسم أبيه : « عمرو بن عثمان » ولكن
خلافًا حدث في ضبط اسم جده «قنبر»
فقليل هو قنبر كجعفر ، وقيل : قنبر
كقنبرة . وقيل قنبرة كحمرة .

وقد جاء ذكر اسمه واسم أبيه وأمه
جده في شعر للزنجشري يترجم عليه فيه :

ألا صلى الإله صلاة صادق
على عمرو بن عثمان بن قنبر

فإن كتابه لم يغن عنه
ذو قلم ولا أصحاب منبر

وهذا الشعر يتفق والضبط الأول «قنبر»
لا الثانى ولا الثالث :

وأما كنيته فهى «أبو بشر» «وأبو الحسن»
فله كنيستان ، ولكن «أبو بشر» أكثر استعمالا
بتداوله ودورنا على الألسنة من أبى الحسن

وأما «سيبويه» فلقب غلب على اسمه
«عمرو» وعلى كنيته «أبى الحسن» «وأبى
بشر» فاشتهره وفي توجيه تلقيبه بهذا اللقب
أحاديث كثيرة وآراء مختلفة - وأقوال
متضاربة . حسبنا منها هنا ثلاثة :

قال قائل : إنه كان يحب شم رائحة التفاح ، تلك كانت خاصة من خواصه ولازمة من لوازمه عرف بها فلقب باسمها . وقال آخر : إنه كانت له رائحة يتطيب بها تشبه رائحة التفاح فلقب بها ، وقال ثالث : إن الكلام ليس على حقيقته فلم يكن يحب شم التفاح ولم تكن له رائحة يتطيب بها تشبه رائحة التفاح بل الكلام فيه شئ من التجوز .

والمعروف ممن شاهدوا سيوييه ورأوه رأى العين وخالطوه وعاشروه أنه كان شاباً ظريفاً لطيفاً جميلاً فلقب بذلك لظرفه وجماله ولطيفه .

قال إبراهيم الحربي المولود سنة ١٩٨ المتوفى ببغداد سنة ٢٨٥ هـ (القفطي ح ١ ص ١٥٥ - ١٥٨ والسيوطي ١٧٨) : سمي سيوييه لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان وكان في غاية الجمال .

وقيل إن أمه هي التي وضعت له هذا اللقب ، فكانت ترقصه به في صغره فلازمه في كبره .

تاريخ ميلاده :

لم يعرف بالضبط تاريخ ميلاده وكل ما ذكره المؤرخون في هذا المقام لا يفيد إلا الظن وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً .

مكان ولادته :

أما مكان ولادته فمدينه من مدن فارس قرب شيراز تسمى « الضاء » وهي بلدة

الحسيني الحلاج المتصوف المشهور والقاضي البيضاوي المفسر الشهير وجماعة آخريين من العلماء والقراء والصوفية والفقهاء ذكرهم ياقوت في كتابه معجم البلدان عند كلامه عن البيضاء :

وقد ترك سيوييه البيضاء مسقط رأسه وهو صغير السن في سن لا تستطيع تحييدها وذهب إلى البصرة التي كانت مزدهرة بالعلم غنية بالعلماء ومالت نفسه إلى دراسة الفقه والحديث على إمام الحديث ، وشيخ أهل البصرة : « حماد بن سلمه » بن دينار النحوي اللغوي مولى ربيعة بن مالك الامام المشهور وكان حماد هذا إماماً فاضلاً تقياً صالحاً ورعاً زاهداً حجة ثقة فصيحا بليغاً (توفي في ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ سبع وستين ومائة) شهد له يونس بن حبيب النحوي فقال : (كان حماد رأساً خلقتنا ومنه تعلمت العربية) وشهد له الجرمي فقال : « مارأيت أفصح منه » وفيه يقول أبو محمد يحيى بن المبارك الزيدي :

يا طالب النحو ألا فابكه

بعد أبي عمرو وحماد

ومن كلمات حماد المشهورة عنه :

« من لحن في حديثي فقد كذب علي » ومنها « مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو مثل حمار عليه مخلاة ولا شعر فيها » .
ويحدثنا التاريخ عن مسألتين لسيوييه مع حماد بن أسامة :

الأولى :

سأله سيبويه يوماً فقال : أحدثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رُفعت في الصلاة ؟ فقال حماد : أخطأت ياسيبويه إنما هو رُفعت ، فانصرف سيبويه إلى الخليل شاكياً ما لقيه به حماد فقال الخليل لسيبويه : « صدق حماد » أمثله يلتقي بمثل هذا المعنى ؟

الثانية :

: كان سيبويه يستمل يوماً على حماد ، فقال حماد : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما من أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الرداء ، فظن سيبويه أن حماداً لحن في حديثه فاستعمل المنصوب مكان المرفوع ، فرد على حماد قائلاً : ليس أبو الرداء . فقال حماد : لحن ياسيبويه : « ليس أبا الرداء » فقال سيبويه « لا جرم لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبداً » وفي رواية أخرى : « لا جرم لأطلبن علماً لا يلحنني فيه أحداً » .

تلك هي المسألة التي حركت في نفس سيبويه الرغبة الشديدة في تعلم النحو فعنى به ، وأقبل عليه وتفرغ له وانقطع إليه حتى بلغ الغاية منه :

فضرب به المثل في التبريز في النحو والعلم بدقائقه ، وتفصيله ، وأسراره ، وغريبه ، والتصرف في أحكامه فخطى اسمه على أسماء الذين تقدموه من العلماء وإن كانت لهم فيه أسرار محمودة ، ولهم فضل يسبق :

وأصبح لفظ سيبويه رمزاً للعالم بدقائق علم النحو ، الخبير بأسراره ، المتصرف في مسائله الذي لا تخفى عليه منه خافية . وما زال اسمه في النحو واللغة كحاتم في الحود ، وكقوس في الفصاحة أي أنه صار المثل الأعلى في بابه وصار أعلم أهل عصره واستحق بمجدارة لقب : (إمام البصريين بل شيخ النحاة أجمعين) :

شهادة ابن خلدون لابن هشام صريحا لسيبوية ضمنا :

ولما بلغ ابن خلدون خبر جمال الدين بن هشام ، النحوى المصرى ، وأراد أن ينوه باسمه بفضله قال : مازلنا نسمع - ونحن بالمغرب - أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له : « ابن هشام أنحى من سيبويه » .

ومن شعر لقطرب :

فأعلم بالنحو من سيبويه
وأجود بالمسال من حاتم
ونحن مازلنا نسمع ونقرأ في كتب الأدب والتاريخ ، عند وصف عالم نحوى لغوى فيقال : هو سيبويه زمانه وفريد - عصره وأوانه :

شيوخ سيبويه :

أشهر شيوخ سيبويه الذين اتصل بهم ، وأفاد منهم بعد حماد بن سلمة الذي قدمنا ذكره خمسة : وهم بحسب ترتيب سنة وفاتهم :
١ - عيسى بن عمر الثقفى : المتوفى سنة ١٤٩ هـ وكنيته أبو سليمان ، ويقال :

« أبو عمر » و أخذ عن أبي عمرو بن العلاء
وعبد الله بن إسحاق . وكان حجة ،
ثقة ، عالماً بالعربية ، والنحو ، والقراءات .
قرأته مشهورة ، وكان فصيحاً ، يتقعر
في كلامه ، ويعدل عن السهل من الألفاظ
إلى الوحشي منها والغريب . وقد حكى أنه
سقط مرة عن محاربه فاجتمع حوله الناس ،
فقال لهم : مالكم تكأ تكأتم على ، ككأ كككم
على ذى جنة ؟ إفرنقموا غنى . أى مالكم
اجتمعتم على ككأكم على رجل مجنون ؟
إنصرفوا غنى . وقد ألف في النحو كتابين :
« الإكمال » و « الجامع » قال السيرافي
في كتابه : « أخبار النحاة البصريين » :
لم يقعا إلينا ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما .
وفيها يقول تلميذه الخليل :

ذهب النحو جميعاً كله

غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع

فهما للناس شمس وقمر

قال تاج الدين ابن مكتوم^١ : لفظ أحدث
ليس بجيد ، ولو قال : غير ما ألف أو صنف
أو أبدع لكان أجود .

٢- الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن
الفرهيدى أو الفرهودى ، صاحب كتاب
العين ، وواضع علم العروض المولود
سنة ١٠٠ هـ والمتوفى سنة ١٧٥ هـ . وكنيته
« أبو عبد الرحمن » نحوى لغوى عروضى
استنبط من العروض وعلمه ما لم يستخرجه

أحد ، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء
كلهم . وكان يقول : إن لم تكن هذه
الطائفة - يعنى أهل العلم - أولياء الله
فليس له ولى . قيل : إنه دعا بمكة أن
يرزق علماً لم يسبقه إليه أحد ولا يؤخذ إلا عنه
فرجع من حجه ، ففتح الله عليه بالعروض .
كان الخليل - رحمه الله من الزهاد في
الدنيا المعرضين عنها ، وكان عفيف النفس ،
لا يميل إلى محبة الملوك والأمراء .

روى أن سليمان بن حبيب بن المهلب
كان والياً على الأهواز وكان له على الخليل
رزق جار فوجه إليه يوماً رسولا يلتصص
منه الشخصوس إليه لتأديب ولده ، فأخرج
الخليل إلى الرسول خبزاً يابساً وقال له :
كل فما عندى غيره ، وما دمت أجده
فلا حاجة لى إلى سليمان . قال له الرسول :
فما أبلغه ؟ فأنشأ يقول :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة
وفى أغنى غير أنى لست ذا مال
شحاً بنفسى إنى لا أرى أحداً
يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

فالرزق عن قلدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال

فلما بلغ سليمان قطع عنه ما يجريه عليه فقال :

إن الذي شق في ضامس

لي الرزق حتى يتسوفاني

حرمته مالا قليلاً فسا

زادك مالاك حرماني

فبلغت هذه المقالة سليمان فأقامته وأقعدته
وكتب إلى الخليل يعتذر إليه وضاعف له
جائزته فقال الخليل :

وذلة بكثرة الشيطان إن ذكرت

منها التعجب جاءت من سليمان

لا تعجبن لخير زل عن يده

فالكوكب النحاس يستقي الأرض أحياناً

وروى ابن خلكان أن الخليل كان يقطع
بيتاً من الشعر فدخل عليه ولده في تلك الحال
فخرج إلى الناس وقال : إن أبي قد جن
فدخل الناس عليه وهو يقطع بيتاً فأخبروه
بما قال ابنه فقال له :

له كنت تعلم ما أقول عذرتني

أو كنت تعلم ما تقول عذرتك

لكن جهلت مقالتي فعذرتني

وعلمت أنك جاهل فعذرتك

قال وهب بن جرير : كان الخليل

ابن أحمد كثيراً ما ينشد بيت الأخطل

وإذا افتقرت إلى النخائر لم تجد

ذنخراً يكون كصالح الأعمال

واجتمع الخليل بن أحمد وابن المقفع ليلة

بطولها يتذاكران وافترقا قسماً الخليل عن ابن

المقفع فقال : رأيت رجلاً علمه أكثر
من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت
الخليل؟ فقال : رأيت رجلاً عقله أكبر من
علمه والخليل هو استاذ سيبويه الأول -
حكى سيبويه الكثير من المسائل عنه . وكلما
قال سيبويه في كتابه : وسألته أو قال :
قال من غير أن يذكر الفاعل فانما
يعني بذلك الخليل - فإذا حكى قولاً عن
الخليل ثم أرفقه بقوله : وقال غيره يعني بذلك
نفسه . وهذا مظهر من مظاهر أدب سيبويه ،
مع أستاذه .

وكان الخليل يحله ويكرمه . قال ابن النطاح :

كنت يوماً عند الخليل فأقبل سيبويه فقال الخليل :

مرحبا بزائر لا يمل قال أبو عمر الخزوي
ركان كثير المحاسة للخليل : وما سمعت
الخليل يقول لأحد إلا لسيبويه ، والخليل
هو القائل :

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي

ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

٣ - الأخفش الأكبر وهو أبو الخطاب

عبد الحميد بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٧٧ هـ

وكان ديناً ورعاً ثقة .

وكان إماماً في العربية ، أخذ عنه سيبويه

والكسائي ويونس وأبو عبيدة وهو أول

من فسر الشعر تحت كل بيت وما كان الناس

يعرفون ذلك قبله ؛ ولكن كانوا إذا فرغوا

من القصيدة فسروها وتقل عنه كثيراً في كتابه .

فقال : وسألت أبا الخطاب

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن في النحاة أحد عشر نحويًا يلقب كل منهم بالأخفش . أحدهم هذا وهو الملقب بالأخفش الأكبر وأما الأخفش الأوسط فهو سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١٠ أو ٢١٥ أو سنة ٢٢١ تلميذ سيدييه ، وناشر كتابه بعده وهو المراد في كتب النحو عند الإطلاق . وأما الأخفش الأصغر فهو علي بن سليمان ابن الفضل المتوفى سنة ٣١٥ هـ ببغداد ٨٠ عاماً .

٤ - يونس بن حبيب :

ويونس بن حبيب البصري المتوفى سنة ١٨٢ هـ في زمن هارون الرشيد (من أكبر النحويين أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وسمع من العرب وكانت له حلقة بالبصرة يختلف إليها سيدييه إمام البصريين والكسائي إمام الكوفيين : والفراء وأبو زيد الأنصاري وخلف الأحمر وغيرهم قال أبو زيد الأنصاري : جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة حكى عنه سيدييه كثيراً في كتابه وكان منقطعا للدرس والتحصيل . عاش تسعين سنة أو مائة سنة لم يتزوج ولم يتسر .

وقال يونس : فرقة الأحباب سقم الألباب . وأنشد :

شيئان لو سكب الدماء عليهما

عيناي حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المشاد من حقيهما

شرح الشباب وفرقة الأحباب

٥ - أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس :

أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وهو نحوي لغوي أديب . وغلبت عليه اللغة والغريب والنوادر وكان ثقة . وإذا قال سيدييه في كتابه : سمعت الثقة فانما يعني أبا زيد هذا ويروي عن أبي عبيدة والأصمعي أنهما سئلا عن أبي زيد الأنصاري فقالا : « ماشئت من عفاف وتقوى وإسلام » توفي سنة ٢١٥ هـ في خلافة المأمون وقد جاوز التسعين . وقد عد ياقوت من مؤلفاته ٣١ مؤلفاً أشهرها (كتاب النوادر) .

تلاميذ سيدييه :

١ - أبو الحسن سعيد ابن مسعدة الملقب بالأخفش الأوسط وهو المراد عند الإطلاق في كتب النحو وهو أحد أئمة البصرة : أخذ عمن أخذ عنه سيدييه لأنه أسن منه ، وكان كثير المخالطة لسيدييه عالماً بأسرار كتابه ، وله الفضل في نشره فقد مات سيدييه في عتقوان شبابه ولم يعرف مثله أنه قرأ كتابه على أحد أو أن كتابه قرئ عليه فكان سعيد بن مسعدة هو الطريق إلى نشر كتابه وقد قرأه عليه أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني وقرأه عليه الكسائي سرآ ودفع له سبعين ديناراً توفي سنة ٢١٠ أو ٢١٥ هـ ووكل إليه أمر تأديب أولاده وكلفه بتأليف كتابه في معاني القرآن فألفه فجعله الكسائي إمامه وجعل علميه كتاباً في المعاني . وعمل الفراء كتاباً في

ذلك عليهما وهو الذي طبعته حديثا دار
الكتب المصرية هـ

قطرب :

وهو ابو علي محمد بن المستنير البصري
المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ببغداد أخذ النحو
عن سيبويه وعيسى بن عمر وغيرهما .
وكان سيبويه يخرج من منزله بالأسحار
فيراه على بابه فيقول له : إنما أتت قطرب ليل
ومن معاني قطرب كما في القاموس : اللص
والذئب ودويبة تدب ولا تحمل ومن شعره :
إن كنت لست معي فالدكر منك معي

يراك قلبي إذا ما غبت عن بصرى
والعين تبصر من تهوى وتفقد

وباطن التاب لا يخلو من النظر

فأودن له شعر من أجود شعر العلماء
على قلته فمنه ما روى أن أبا القاسم المهلبى
وكان من تلاميذ قطرب — جعل لقطرب
جعلا على أن يقدمه على نفسه ، ويقر له
بالعلم ويقول في ذلك شعرا فأجابه إلى ذلك
قطرب : وقال :

ذا ما أقره قطرب

على نفسه لآبى القاسم

وأشهد هود وحيهما عليه

وأشهد غزوان مع عاصم

بأن قال قد بذنى فى القياس وصبرت
فى يده خاتمى .

فأعلم بالنحو من سيبويه وأجود بالمال من حاتم
لديته عند رد الجواب

تزيد على فطنة العالم
فصرت على السن تلميذه
وصار أبو قاسم عالمى

المناظرة بين سيبويه والكسائى :

قدم سيبويه إلى العراق على يحيى بن خالد
البرمكى . فسأله عن خبره فقال : جئت
لتجمع بينى وبين الكسائى فقال : لا تفعل فاء
شيخ مدينة السلام وقارئها ومؤدب ولد أمة
المؤمنين وكفى من فى المصر له ومعه .

فأبى إلا أن يجمع بينهما ، فعرف الرشيد خبره
فأمر بالجمع بينهما فوعده بيوم ، فلما كان ذلك
اليوم غدا سيبويه وحده إلى دار الرشيد
فوجد القراء والأحرار ، وهشام بن معاوية
ومحمد بن سعدان قد سبقوه فسأله الأحمر عن مائة
مسألة فما أجاب منها بجواب إلا قال له الأحمر :
أخطأت يا بصرى فوجم سيبويه وقال :
« هذا سوء أدب » ووافى الكسائى وقد شق
أمره عليه ومعه خلق كثير من العرب فلما
جلس قال له : يا بصرى كيف تقول .
خرجت وإذا زيد قائم قال خرجت فإذا زيد
قائم قال دق جوزان ؟ قال : لا قال الكسائى ،
كيف تقول : قد كنت لم أظن أن
العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا
هو هى أو فإذا هو إياها ؟ قال سيبويه
فاذا هو هى ولا يجوز النصب . فقال الكسائى
لحنت وخطأه الجميع . وقال الكسائى :
العرب ترفع ذلك كله وتنصبه .

ودفع سيبويه قوله ، فقال يحيى بن خالد :
 قد اختلقتما وأنما رئيسا ببلديكما . وهذا
 موضع مشكل فمن يحكم بينكما ؟ فقال
 الكسائي . هذه العرب ببابك قد جمعتم
 من كل أدب ووقدت عليك من كل صفع
 وهم فصحاء الناس وقد قنع بهم أهل
 المصرين وسمع أهل البصرة والكوفة
 منهم فيحضرون ويسألون فقال يحيى وجعفر :
 قد أنصفت وأمر باحضارهم فدخلوا وفيهم
 أبو فقحس وأبو رثار وأبو ثروان
 فسلوا عن المسائل التي جرت بينهما فتابعوا
 الكسائي فأقبل يحيى على سيبويه فقال قد تسمع
 أيتها الرجل فأنصرف المجلس على سيبويه
 وأعطاه يحيى عشر آلاف درهم وصرفه ،
 فخرج وصرف وجهه تلقاء فارس ، وأقام
 هناك حتى مات نهما بالذرب ولم يلبث إلا
 يسيراً ولم يعد إلى البصرة .

وفي بعض الروايات أن الكسائي بعد أن
 تيقن بالغلبة قال للوزير : أصلح الله
 الوزير لقد وقد عليك من بلده مؤملاً فإن
 رأيت ألا ترد خائباً ، فأمر له يحيى بعشرة
 آلاف درهم .

مرض سيبويه وموته :

لقد كان وقع الهزيمة على نفس سيبويه
 شديداً فقد كانت مؤامرة حيكت له .
 ويقال إنه سأل بعدها عَمَنَ يرغب في النحو
 من الملوك فقيل له : طلحة بن طاهر فشخص
 إليه بخراسان فاشتد عليه المرض وهو
 في الطريق فمات . ولكن ما تاريخ وفاته ؟

وفي أي مكان توفي ؟ لم يتفق المؤرخون
 على شيء في هاتين النقطتين فقد قيل : إنه
 مات سنة ١٦١ هـ أي إحدى وستين ومائة . وقيل
 سنة ١٧٧ هـ سبع وسبعين ومائة ، وقيل سنة
 ١٨٠ ثمانين ومائة . وقبل سنة ١٩٤ هـ أربع
 وتسعين ومائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة
 وقيل نيف وأربعون سنة .

مكان قبره : البيضاء ، البصرة ، ساوه ، شيراز

وقد اختلف أيضاً في تعيين المكان الذي
 مات فيه . فقيل ، مات بالقرية التي
 ولد فيها « البيضاء » وقال ابن قانع : مات
 بمدينة البصرة ، وقال ابن الجوزي : مات
 بمدينة ساوه » وذكر الخطيب في تاريخ
 بغداد عن ابن دريد أن سيبويه مات بشيراز
 وأن قبره بها . ورجح هذا القول ،
 لأن ابن دريد خبير بأخبار البصريين
 وثقة فيها . وقد أقام كثيراً بفارس .

البيت الذي كان كثيراً ما ينشده :

وكان سيبويه كثيراً ما كان ينشد هذا البيت .

إذا بل من داء به ظن أنه
 نجاب به الداء الذي هو قاتله

شعره وقت أن جاد بنفسه :

ولما مرض سيبويه — رحمه الله تعالى —
 مرضه الذي مات فيه جعل يجود بنفسه ويقول :
 يؤمل دنيا لتبقى له

فات المؤمل قبل الأمل

حيثما يروى أصول النخيل

فعاش الغسيل ومات الرجل

قوله عند بكاء أخيه عليه :

ولما اعقل سيبويه وضع رأسه في حجر أخيه
فبكى أخوه لما رآه على مابه فقطرت من عينه
قطرة على وجه سيبويه ففتح عينيه فرآه
يبكى فقال :

أخين كنا فرق الدهر بيننا
إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهر؟

ما كتب على قبره :

قال الأصمعي : قرأت على قبر سيبويه
شيران هذه الأبيات وهي لسليمان بن زيد
العدوي :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور
ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة
لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا

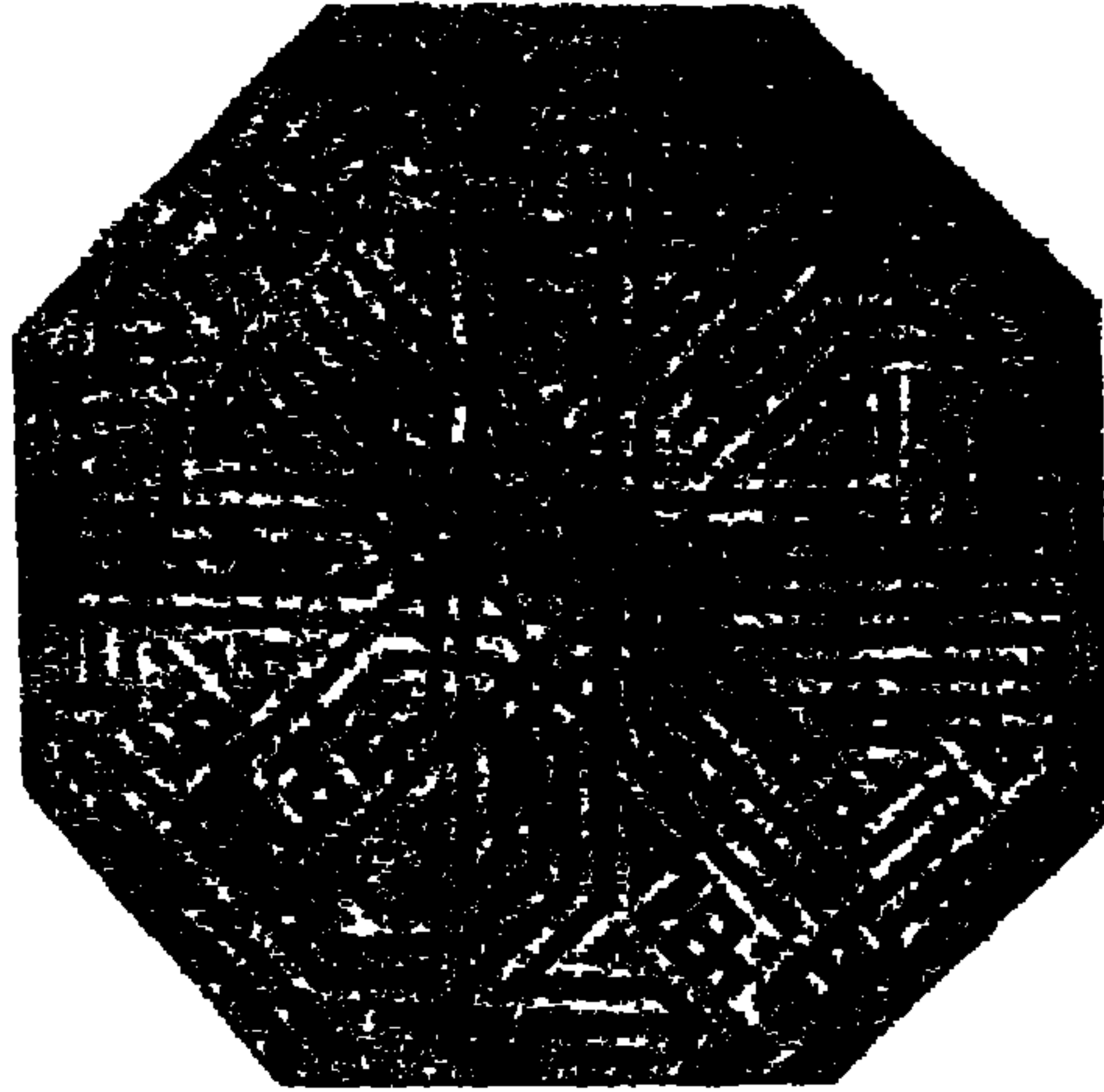
قضى القضاء وصرت صاحب حضرة

عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

وقد أردت أن أزور قبر سيبويه حينما
كنت في إيران سنة ١٩٧١ ولكن اعتذر لي
القائم بشئون الأوقاف إذ ذاك، وهو السيد
حسين عصار، بأن المكان ليس على استعداد
لهذه الزيارة، ووعد بأن ينهى لي هذه الزيارة
حينما يتم إقامة المسجد على قبره في فرصة
قريبة بدعوة لاحقة. وقد تم مهرجان سيبويه
ولم أدع مع الأسف إليه . وقال لي سفير
إيران بالقاهرة السيد بهرام بهرامى : إن
السيد حسين عصار كان قد عين في وظيفة
بتركيا حين انعقاد المهرجان ووعد بأن
يهيئ لي هذه الزيارة في فرصة قريبة.
رحم الله سيبويه، وأبقى ذكره في العالمين .

محمد الفحام

عضو الجمع



العروبة في شعر أبي تمام للدكتور شوقي ضيف

منشأ

أبي تمام حبيب بن
أوس ومرباه في دمشق

إحدى دور العروبة من قديم ،
وهو من أبناء طيء القبيلة اليمينية العربية
التي نزلت في العصر الجاهلي شمالي نجد .
واتخذت الفصحى لساناً لها . وحاول أن
يلقي ظلاماً من الشك على نسبه بعض معاصريه ،
فزعم أن أباه كان نصرانياً اسمه تدوس
وأنه حُرّفه إلى أوس وانتسب في طيء ،
وتغادى هذا الزعم بمرجليوث فقال لعل
تدوس محرفه عن تيودوس . وتبعه بعض
الباحثين المعاصرين فزعم أنه يوناني
الأصل ، وقال بروكلمان : بل هو سرياني .

وهي مزاعم مبنية على اتهام باطل لبعض
شائبه ممن عاصروه : أن أباه اسمه
تدوس . وهو اتهام ينقضه نقضاً كل من
ترجموا لأبي تمام من المؤرخين الثقات
إذ أجمعوا على أنه طائي صليبة .

وإذا تصفحنا ديوانه وجدنا شواهد
كثيرة تقطع بعروبه وأنه ينحدر من
أصول طائية يمنية ، من أهمها أنه اختار
في مطالع حياته ممدوحيه ومن يقدم إليهم
قصائده إما من طيء قبيلته الدنيا وإما من
قبائل اليمن الأخرى ، إذ نراه يرحل إلى
حمص ويلزم بني عبد الكريم الطائيين
وبعض أبناء كندة اليميين ، ويصور
شعوره المضطرب حينئذ بيمنيته وطائيته
في قوله لعمر بن عبد العزيز الطائي الحمصي :

هل أوزق المجد إلا في بني أد

أواجثنى منه لولا طيئ ثم

لولا أحاديث أبقتها مآثرنا

من الندى والردى لم يعجب السمر

وبنو أدهم أبناء كهلان القحطانيون

يرمز بهم إلى جميع القبائل اليمنية ،

فلولا تلك القبائل وقبيلة طيء ما أوقرت

في رأيه شجرة المجد الباسقة ولا أثمرت .

ولولا مآثر تلك القبائل جميعاً التي سارت
بها الركبان في الكرم والشجاعة ما وجد
السيارمادة لأحاديث السمر الطريفة. ويشدُّ
رحاله من حمص والشام إلى مصر، فيولِّي
وجهه نحو عياش بن لهيعة الحضرمي
اليمني صاحب الخراج بها دون سواه،
لما بينهما من أواصر النسب، ويعلن
إليه ذلك مجاهراً به مفاخرًا :

وأنت بمصر غايتي وقرابتي
بها وبنو الآباء فيها بنو أتي
فابن لهيعة وكل أفراد اليمن بمصر
أهله وقرابته وأشقاؤه في الأبوة والنسب.
ويفخر فخراً مضطرباً في القصيدة بملوك
اليمن وأقبالها الأقدمين . وهو يردد هذا
الفخر طويلاً في أشعاره : صادراً فيه عن
ذات نفسه ، مجلجلاً به حتى لكأنما يريد
أن يملأ به الدنيا جلجلة وضجيجاً على
شاكلة قواه :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم
وسمى فيهم وهو كهل ويافع
مضوا وكان المكرمات لديهم
لكثرة ما أوصوا بهم شرائع
باليمل لو عاينت فيض أكفهم
لأيقنت أن الرزق في الأرض واسع

ولم تمدح طيء ولا مدحت اليمن بمثل
هذا الشعر ، ولا استشعر أحد من أبنائهما
مفاخر قومه على نحو ما استشعرها أبو تمام
فالو أن مؤرخيه لم ينصوا على يمينته
وطائيته لكان في هذه الأشعار وما يماثلها
مما يصدر فيه صدوراً طبيعياً عن دخائل
نفسه وأعماق قلبه الدليل الحي على أرومته
الطائية اليمنية الأصيلة .

وأبو تمام لا يستشعر يمينته وطائيته
في أشعاره فحسب ، بل أنه يستشعر
أيضاً في قوة عروبتة التي تجمع قبائل
قحطان وعدنان جميعاً ، لافرق بين قبيلة
وقبيلة . وقد كان الشعراء من قبله ألسنة
قبائلهم يسجلون مفاخرها ويذيعون
مآثرها ، أما هو فبدأ مثلهم بهذه المشاعر
ثم أخذت تتسع في نفسه وتعمق ، حتى
شملت جميع القبائل اليمنية والعنانية
ويصور ذلك في بعض قصائده بقوله :

وإن يك من بني أدد جناحي
فلن أثيث ريشي من إياد

وواضح بأنه يجاهر بأن اليمن التي
رهز إليها بأدود إن كانت هي التي أنبتت
جناحه فلن عدنان التي رهز إليها بإياد

هى التى أنبتت ريشه فى جناحه وأتاحت
له القوة على النهوض والطيران .

ويُكرمه جواد كريم هو محمد بن الهيثم
فيشكره بقصيدة بائنة يتمنى فيها لو أن
قبائل مذحج وطيء وقضاعة اليمنية
وقبائل تميم والرباب وقيس المضرية وقبائل
ربيعة شكرته جميعها عنه . وكأنما يشعر
فى ضميره أنه يمثل كل قبائل العرب
يمنية وغير يمنية ، أو قل كأنما يشعر
شعورا متأصلا بعروبتة وجميع جذورها
وأصولها الجنوبية والشمالية فى الجزيرة
العربية .

ويقول التبريزى شارحه إنه ذكر غير
طيء قبيلته القبائل من جميع العرب لأن
الإصهار فى القبائل وتزوج بعضهم من
بعض صير بينهم أسباباً من الخثولة
والعمومة . ونضيف إلى قوله أن أبا تمام
إنما كان يصدر فى ذلك عن شعور متأصل
فى طواياه بوحدة العرب مهما اختلفت
قبائلهم وتوزعت بين يمنية وعدنانية .
ويتسع هذا الشعور فى ضمير أبي تمام ،
فإذا هو يحس فى قوة هذه الوحدة لابين
القبائل العربية وحدها فحسب . بل أيضاً
بين بلدان العالم العربى من أقصى الغرب

إلى أقصى الشرق ، وبذلك يصبح السابق
غير منازع إلى الإحساس بهذا الشعور العام
الذى يؤمن به كل عربى اليوم ، فجميع
البلدان العربية حصون ضخمة للعروبة
وكل من يعيش فيها من أبناء الضاد التى
تصل الروح بالروح ، ويتعمقه هذا
الشعور فيهتف :

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا
بالرقتين وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تُشافه بى أقصى خراسان

فأهله بالشام وأحابيه ببغداد ، وهو
فى الرقة وإخوانه فى الفسطاط ، وعينه
طامحة إلى الاكتحال برؤية بقية أقربائه
فى خراسان . وكأنما كانت إقامته فى الرقة
التي أشار إليها فى البيتين إرهاباً منه
لإقامته الخالدة بين أهله وخلانه .
وعلى هذا النحو كلما أنعمنا النظر .
فى ديوان أبي تمام وجدناه يكتظ بمشاعر
العروبة التى تروق وتروع ، وقد دفعه ذلك
إلى استظهار أمجادها فى القديم والحديث
والتغنى بها غناء لا يَجفُ معينه . ويصور
ذلك من بعض الوجوه أن نراه يمدح خالد
ابن يزيد الشيبانى والى الموصل للمأمون

فتلعب في مخيلته موقعة أسلافه الشيبانيين
في يوم ذي قار الذي انتصرت فيه شيبان
على الفرس قبل الإسلام ، وكأن ذلك
كان إيذاناً بما سيحدث عما قليل من
تفويض العرب لدولتهم . ويرفع الموقعة أبو
تمام شعاراً لهذا المجد الحربي القديم قائلاً :

لهم يومٌ ذي قارٍ مضى وهو مفردٌ
وحيدٌ من الأشباه ليس له صُحْبُ
به علمتْ صُهبُ الأعاجم أنه
به أعربتْ عن ذات أنفسها العُربُ
هو المشهد الفضلُ الذي ما نَجَا به
لكسرى بن كسرى لاسنَام ولا ضَلْبُ

وواضح أنه لا يوضع هذا النصر الحربي
العظيم على مفرق شيبان وحدها ، بل يوضعه
على مفرق العرب ورؤوسهم قاطبة ،
إنه يوم فخار من أيام العروبة المجيدة ،
رُوِّعَتْ فيه الفرس بما أذاقتهم من البطش
والنكال وبما صَبَّتْهُ على ملكها كسرى من
الهزيمة والاندحار ؛

ويحس أبو تمام أن من واجبه أن يمنح
العروبة لسانه وقلمه ، وأن يعيش معها في
جهادها الحربي ونضالها العنيف ضد أعدائها
الضارين عليها من مثل بابل وأتباعه الخرمية

في أرمينية وأذربيجان ومثل أعدائها الآخرين
من الروم المغيرين من آسيا الصغرى .
وكان بابل قد هزم كثيراً من الجيوش
العربية وامتنع بالجبل المعروف باسم
البَدِّ ، وفي سنة ٢١٤ للهجرة يفاجأ أبو تمام
ويفاجأ معه العالم العربي بفتكه بتقائد
من قواد العرب العظام هو محمد بن حميد
الطوسي الطائي . وتَنَصَّب له الأمة المأثم
في كل مكان ، وتبكيه بدموع غزار . وتهول
أباً تمام الكارثة ويمتلئ قلبه حسرة وحزناً
ولوعة ، فيغمس طرف ردائه في مداد شديد
السواد ويلطخ به وجهه وجداً وجزعاً على
البطل العربي ويرثيه برأيته الخالدة هائفاً :

فمات بين الطُّغْن والضُّرْبِ ميتة
تقوم مقام النصر إذ فاته النُّصْرُ

وما مات حتى مات مضربٌ سيفه
من الضُّرْبِ واعتَلَّتْ عِيَاهُ القَنَا السُّمُرُ

فأُثْبِتَ في مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلُهُ
وقال لها من تحت أنخَمَصَكَ الحَشَرُ

مضى طاهرَ الأثوابِ لم تبق رَوْضَةٌ
غداة ثَوَى إلا اشتَهَتْ أنها قَبْرُ

وليس هذا رثاء إنما هو تمجيد لايدانيه
تمجيد في رثاء الأبطال الذين يَفْدُونَ

شعوبهم بمهجم وأرواحهم ، فيكتبون لها
بذلك نصراً مؤزراً . فابن حميد لم يهزم
ولم يفر جيناً من حرب بابل ، بل أقدم
إقداماً لا يشبهه إقدام ، وفتك بالأعداء
فتكاً لا يشبهه فتك ، حتى تقصفت
السيوف والرماح في يده ، وهو ثابت في
مستنقع من الدماء حتى الموت الزؤام .
وابن حميد بذلك مثال للشجاعة التي
ليس بعدها شجاعة والبطولة التي ليس
بعدها بطولة ، بطولة تحل محل النصر
الذي فاتته ، وحتى لتتحنى كل روضة
مزهرة لو أنها ضمت في حشاها جثمانه الطاهر .
وحقا ما قاله أبو دلف لأبي تمام : « لم يمت
من رثي بمثل هذا الشعر » وأى رثاء ! لقد
أحال استشهاد ابن حميد في المعركة
الخاسرة نصراً باهراً ، حتى يأتسى به
الشباب العربي المعاصر له في بذله لروحه
وتضحيته بنفسه في سبيل قومه . وكان
جزاء وفاقاً لأبي تمام أن بنى بنو حميد
أبناء الشهيد وأهله قبة بعد وفاته على
قبره ، آداء لبعض حقه .

ويصبح أبو تمام منذ هذا التاريخ لساناً
للعروبة التي كانت تتفجر ينابيعها في
قلبه ، لساناً يعبر عن انتصاراتها الحربية

ويصوغها لها أناشيد مجلجلة ، أناشيد
كالرعد القاصف تنذر الأعداء بالويل
والثبور والهلاك والدمار . وكان نافذ
البصيرة فرأى أن لا ينظمها بعيداً عن
ساحات الحرب ، وإذا هو يصنع صنيع
مكاتبى الصحف الحربيين لعصرنا ،
فيرافق الجيوش حتى يرى الوقائع تحت
بصره ، ويرى ما يأخذ به قوادها وجنودها
البواسل أنفسهم من الصبر والجلد واحتمال
ما يطاق وما لا يطاق حتى يذيقوا الأعداء
بأسهم ويمزقوهم شر ممزق . ويأخذ في النظم
نظم المشاهد المعائن مبتهجاً بالنصر المبين .
وأولى معارك هذا النصر التي شهدتها
وسجلها أناشيد لأمته العربية المنتصرة
معارك المؤمنين مع تيوفيل إمبراطور الروم
وما أخذ ينزله به منذ سنة ٢١٥ للهجرة
من هزائم ساحقة كال له فيها هو وجنوده
ضربات قاصمة . وكان أكبرها وأشدّها
هو لامعارك سنة ٢١٨ ، إذ لم يكد المؤمنون يبلغ نهر
البدندون في الجنوب الغربي لآسيا الصغرى
حتى وفد عليه رسول من تيوفيل ، جاءه
مسرعاً يعرض عليه في ذلة وانكسار
إحدى ثلاث : إما أن يرضى بأن يأخذ
كل ما أنفق في طريقه على جيشه ويعود

دون حرب ، وأما أن يرضى بأن يرد له ما لدى الروم من أسرى المسلمين دون فداء ، وإما أن يرضى بتعهد الروم أن يصلحوا كل ما أفسدوا من ثغور المسلمين . ويجيبه المأمون غاضباً : قل لتيوفيل : أما قولك ترد على نفقة الجيش فأني سمعت الله تعالى يقول في كتابنا حاكياً عن بلقيس : (وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمثلونن بما لآتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) . وأما قولك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم فما في يدكم إلا أحد رجلين : إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار إلى ما أراد ، وأما رجل يطلب الدنيا فلا فلك الله أسره . وأما قولك تعمر كل بلد للمسلمين خربت الروم فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت ذلك بأمرأة عشرت عشرة في حال أسرها فصرخت : وامحمداه ! وامحمداه ! . ثم سمح برسول تيوفيل : عُدْ إلى دمالك قابس بيني وبينه إلا السيف . والتفت إلى من معه قائلاً : اضربوا الطبل إيداناً بتحريك الجيش الجرار إلى الحرب . وضرب الطبل

وتقدم الجيش يزلزل الأرض زلزالاً عنيفاً بما أشاع المأمون في روحه من الحماسة ، ويجتاح حصون الروم حصناً من وراء حصن وهم لا يملكون له رداً ، وتيوفيل ينتفض خوفاً وهلعاً . وكل ذلك يمرأى من أبي تمام وتحت بصره وسمعه ، وكأنما عاد إلى العروبة مجدها الحرب القديم في الفتوح ، وتغمره نشوة هذا النصر العظيم ، ويتغنى به وببسالته تلك الجبوع العربية التي محقت الروم عند كل حصن محقاً ذريعاً ، قائلاً :

تَخْلُوا الحديد من الحديد معاقلاً
سُكَّانَهَا الأرواحُ والأجسامُ
مُسْتَرْسِلِينَ إلى الحُتُوفِ كأنما
بين الحُتُوفِ وبينهم أَرْحَامُ
آسَادُ مَوْتٍ مُخْدِرَاتُ مَالِهَا
إِلَّا الصَّوَارِمَ وَالْقَنَا . آجَامُ
فِي مَعْرِكِ أَمَا الْحِمَامُ فَمُقْطِرُ
فِي هَبْوَتَيْهِ وَالْكُمَاةُ صِيَامُ

فهم دائماً يعيشون تحت ظلال السيوف
والرماح ، ودائماً يقتحمون ميادين الحروب
للفتك والأقدام ومنازلة الأقران وكأنما
بينهم وبين الموت الأحمر وشائج قرابة ،

قدائماً يسقون أعدائهم كسوسه وسمومه
القاضية ، وكأنهم أسد أجماها رماح
وسيوف مُشرعة مائتي تنشب أظفارها
في فرائسها حتى تلفظ أنفاسها ، أسد
صائمة لا تهتم بأكل ولا بشرب ، بينما الموت
فاغرفاه كاشرعن أنيابه يلتهم الأشباح .
وكان من أبطال المعارك المأمونية خالده بن
يزيد الشيباني واليه على الموصل ، وقد
أبلى فيها هو وجنوده بلا عظيماً ، ويسجل
له أبو تمام مجداً خريبياً ظفزه به ، فقد تبع
بجنوده نيو فيل حين ولّى على وجهه هارباً
من بين يدي المأمون وأوغل وراءه في بلاد الروم
يأسر ويغنم . ويراسله تيو فيل مدعياً
خائناً ، يطلب الصفح والصلح ولا يجيبه ،
فيوغل في قراره ، وقد ألتخه الرعب والهول
من كل جانب ، وفي ذلك يقول أبو تمام
ممجداً لخالده وانتصاراته :

ولا رأى توفيل راياتك التي
إذا ما اتلّبت لا يقاومها الصلْبُ
تولّى ولم يألُ الردى في اتّباعه
كأن الردى في قصده هائم صب
سمان بلاد الروم عمت بصيحة
قضمت حشاها أورغاوسطها السقب

غدا خائفاً يستنجد الكُتب مدعياً
عليك فلا رسلُ ثنتك ولا كُتب

فبمجرد أن رأى تيو فيل رايات خالده
وجموعه التي لا يثبت لها أعتى العتاة أمعن
في الهرب ، والردى يلاحقه يريد أن يغنم
منه فرصة أو يصيب منه غرة . وكأنما
عمت بلاد الروم صيحة خلعت القلوب
وكانها الصيحة التي أندرت من قبلهم
ثمود حين رغا ولد الناقة التي عقروها
عصيانياً لله وكفراناً ، فأرسل عليهم
صيحة واحدة فكانوا هشيماً تذروه الرياح .

وكان مقتل ابن حميد الطوسي الطائي
في حروب بابك لا يبرح خيال المأمون ،
وصمم على أن يأخذ بثأره ، وأن يكسر
حد بابك وجنوده الخرمية ، وانتدب لذلك
إسحق بن إبراهيم المصعبى أحد قواده المغاوير ،
فمضى ينازله في الإقليم الجبلى بأذربيجان
وأرمينية ، حيث كان يحتوى وراء الجبال
الوعرة . وظل المصعبى في نزاله إلى أن توفي
المأمون وتولى المعتصم بعده مقاليد الخلافة ،
وحانت له فرصة من جموع غفيرة لبابك ،
فلم يبق منهم ولم يذر ، وأمر أن تُحز أذن
من كل قتيل ، حتى إذا بلغت عدة الأذان

ستين ألفاً أرسل بها إلى المعتصم ليديه مدى
تنكيله بهم ومقدار من سفك دماهم منهم
أخذاً بشار ابن حميد ومن جاهلهم معه
جهاداً شاقاً. ودقت البشائر في كل مكان
ابتهاجاً بهذا النصر، وتغنى أبوتام بمثل
قوله :

وقائعُ أشرقَتْ منهنَّ جَمْعُ
إلى خَيْفَى مِنى قَالَمُوقَمَيْنِ

وقائعُ أذكرتْنا يَوْمَ بدرٍ
ومُشْتَجِرَ الأَرْضِ في حُنَيْنِ

رَدَدَتْ الدِّينَ وهو قَرِيرُ عَيْنٍ
بها والكُفْرَ وهو سَخِينُ عَيْنِ

فَجَمْعُ والخَيْفِ وَمِنَى والمُوقَمَانِ بالزُدْلَفَةِ
وعرفة ، كل تلك الأماكن المقدسة التي
يَهْلُ بها الحجيج ويلبُّون . كأنما انساب من
هذه الوقائع في أرمينية وأذربيجان
نور تألق فوق جبالها ، وكأنما أهرق
في تلك الوقائع من الدماء ما يهرق في أيام النحر
والتشريق . ويذكر هنا كل وقائع الجاهلية
وأيامها المشهورة ليقول إنها ليست شيئاً
مذكوراً بجانب هذه الوقائع العربية
الجديدة ، وكأنما نسختها نسخاً أو محتها
محواً . ويصل بينها وبين وقائع بدر

وحَنَيْنِ التي أعزت الإسلام وقهرت الكفر
قَهراً لم تقم له قائمة بعده .

ورأى المعتصم أن الوقت حان لينزل
ببابل وأتباعه الخُرَّمِيَّةَ الضربة القاضية ،
فوجه إليه بصفوة من قواده أمثال أبي سعيد
الثغري الطائي وأبي دلف العجلي الشيباني .
ويشتبك أبو سعيد مع جماعة من أنصار بابك
ويدمرهم تدميراً . ويواصل الهجوم معه
أبو دلف وقواد مختلفون : وينازلونهم
في سندبايا وأرشق وموقان ، والنصر
يواكبهم مصعدين إلى جبال أو منحدرين
إلى بطون وديان . وما يزالون يفتحون
ويتقدمون من نصر إلى نصر ومن حصن إلى حصن
حتى يوافقوا جبل البَذْحَصْنِ بابك الحصين .
ويأخذون عليه المضايق وهم يضربون
بصنوجهم وأجراسهم وينفخون في بوقاتهم
لإدخال الفزع والرعب على قلبه وقلوب
من بقى من عصاباته . ولما رأى أنه قد
أُحيط به ولم يعد أمامه مجال للمقاومة
فر هارباً في جبال أرمينية وضاعت عليه
الدنيا بما رحيت ، فنزل بولاية سهل بن
سنباط ، ولم يلبث أن أسلمه إلى قواد
المعتصم فدخلوا به بغداد في موكب عظيم ،
حيث قُتل وصلب نكالا له ، إذ ظل ثائراً

على الخلافة نحو عشرين عاماً وظل ينازل
جيوشها آماداً متطالة . ونوّه أبو تمام
طويلاً بهذا المجد الحربى الضخم الذى
حققه قواد المعتمى وفى مقدمتهم أبو سعيد
محمد بن يوسف الثغرى وأبودلف العجلي
الشبهائى ، وهو يردد الحديث عن هذا النصر
دائماً فى مدائح لآبى سعيد الثغرى ، وكأنما
له الحظ الأوفر منذ ، كتبه :

قَضَى مِنْ سَنَدْبَايَا كُلِّ نَحْبٍ
وَأَرْشَقَ وَالسَّيْفُ مِنَ الشُّهُودِ
وَأَرْسَلَهَا عَلَى مَوْقَانِ رَهْوَاً
تُشِيرُ النَّقْعَ أَكْدَرَ بِالْكَلِيدِ
وَيَوْمَ التَّلِّ تَلُّ الْبَدُ أَبْتَا
وَنَحْنُ قِصَارُ أَعْمَارِ الْحَقُودِ
قَسَمْنَاهُمْ فِشْطَرٌّ لِلْعَوَالِي
وَأَخَرُ فِي لَغَى حَرِيقِ الرُّقُودِ

وهو يصور أبا سعيد الثغرى كأنما نذر نذراً لربه
أن يحارب بابك الخرمى وأتباعه ويقضى عليهم
قضاءً مبرماً ، وقد وفى بها نذراً وراء نذر ،
وتلك سيوفه المقللة تشهد له بنكايته فى
أصحاب بابك بأرشق حتى أصبحوا لحمًا
على وضم ، وقد أرسل الخيل بعدها على
موقان تقطع حزونها . وظل لا يقطع ركضها

وهى تشير الغبار بحوافرها حتى من
الصخور لكثرة ما تضرب فيها وتطرقها
طرقاً ، وما زالت تطوى له الجبال والوديان
والهضاب حتى وافت البذ ، بل حتى
فتحته وصعد الناس فيها بالأعلام
مكبرين مهالين ، فشفت النفوس من
حقدها الذى كان قد تراكم عليها منذ
مقتل ابن حميد الطوسى « لانفس أبى
سعيد الثغرى وحده : بل أيضاً نفس أبى تمام
وغيره من العرب ، فكلهم كان يريد
أن يشفى حقد العروبة المتأجج فى دخائله ضد
بابك وأتباعه . ويقول أبو تمام إننا
قسمناهم شطرين : شطراً ناشته السيوف
وشطراً ناشته حرائق المجانيق ، وهى
قسمة لا يخص شرفها أبا سعيد وحده
بل يعم العرب جميعاً . وهذا هو معنى
ما نقوله من أن نفس أبى تمام كانت
تكتظ بمشاعر العروبة ، فإذا انتصر أحد
قوادها فى حرب مبيدة أحس بقوة كأنما
يشركه فى انتصاره ، بل كأنما كان يشركه
فى هجماته وضربات . ويذيب أبو تمام
فى ذلك غريزة أخذ الثأر . المكتنة فى
نفوس العرب منذ العصر الجاهلى
ومنذ كانوا لا يتنادون بشئ

نداءهم بطلب الثأر ، حتى غدا ذلك عندهم
وكأنه عقيدة دينية لها شعائرها من تحريم
الخمر والنساء والطيب على أصحاب القتيل
حتى يأخذوا بثأره ، مما ولد فيهم نزعة
قوية لسفك الدماء من واتريهم ، وكأنا
يريدون أن يلطخوا بها أيديهم ، بل لكأنما
يريدون أن يشربوها شرباً . ويصور أبو تمام
النزعة العربية العتيقة في مديحه لأبي
دلف العجلي الشيباني ، إذ يقول في تهنته
بالانتصار هو ومن كان معه من القواد
على بابك :

ومرّ بابكُ مرّ العيش مُنْجِداً
مُحَلِّولياً دمه المعسولُ لو رُشفا
حيران يحسب سَجَفَ النِّقْع من دَهْش
طَوْدًا يحاذر أن ينقُض أو جُرُفا
وهو يصور هرب بابك وإسراعه فيه ،
وقد أصبح عيشه مرّاً خالصاً ، وبلغ من
رعبه وفزعه أن أصبح يخال . الغبار
الكثيف جبلاً يريد أن ينقض . وأهم من
ذلك أن أبا تمام يعبر عن نزعة الدم
المكنونة في نفسه إزاء أخذ الثأر من
بابك ، فيتصور دمه حلو المذاق ، ويتمنى
لو رشفه هو وأمثاله من العرب ليشفيهم
مما انطوت عليه نفوسهم له من حقد دفين .

وفي هذه الأثناء كان تيوفيل إمبراطور
الروم قد انتهز انشغال جيوش الدولة
في القضاء على بابك الخرمي ، فأغار على
مدينة زَبْطُرة من ثغور الجزيرة على
الحدود الفاصلة بين الدولتين : العربية
والرومية وخرّبها ، ومثل بأسراها من
الرجال فسمل أعينهم وقطع آذانهم
وآنافهم ، وسبها كثيراً من النساء ،
فضج العرب في الأمصار واستصرخوا
الدولة في المساجد ، وطار نبأ
الكارثة إلى المعتصم ببغداد وطار معه
أن امرأة من بين الأسيرات كانت لاتنى
تصيح : وامعتصماه ! والإسلاماه . وثار
به الغضب ثورة عنيفة ، فجهز لحرب
تيوفيل جيشاً جراراً ، لم يسبق لخليفة
أن جهز جيشاً مثله يقال إنه بلغ مائتي
ألف أو يزيدون ، زودهم بالخيل العتاق
والسلاح والعدد والآلة وحياض الأدم
والروايا والقرب وآلات الحديد والنفط .
وسأل أيّ بلاد الروم في آسيا الصغرى
أحصن ، ف قيل له عمورية التي خرجت
منها الأسرة الحاكمة ببيزنطة . فأمّر
أن يكتب اسمها على البنود والأعلام .
وكان المنجمون قد تنبأوا له بأنه لن

كان يبرأى من أبى تمام وأحس بابتهاج
 لاحد له كما أحس كل عربى هناك
 وذاق للنصر حلاوة لا تماثلها حلاوة ،
 فقد أخذ المعتصم وجنوده ثأر مدينة
 زبطرة وأطفالها ونسائها ورجالها من الروم
 الأوغاد ، وحطموا أكبر مدنها فى آسيا
 الصغرى حينئذ حطما لم تبق فيهم بعده
 قوة ولا قدرة على المقاومة . ويا له من
 أخذ للثر أبرأ قلوب العرب الكليمة .
 وهبط على أفئدتهم الجريحة هبوط
 البلسم الشافى . وإذن فليصدر أبو تمام
 عن هذه الفرحة الهنيئة ، وليجلجل
 بصوته القوى فيها جلجلة تدوى فى كل
 الآفاق ، فقد انتصرت العروبة انتصاراً
 عظيماً ، وحق على شاعرها أن يمجده
 ويمجد قائده المعتصم وجنوده ، وسرعان
 ما ينظم فى عمورية فريدته أوقصيده
 الكبرى :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ
 فى حده الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ
 بيضُ الصِّبائحِ لا سوادُ الصِّحائفِ فى
 مُتُونِ إجلالِ الشُّكِّ والرَّيبِ

يفتحها حينئذ ، فرمى بكلامهم عرض
 الحائط ، وسار الجيش الكثيف وجدَّ
 فى المسير وقطع البلاد ، حتى إذا كان فى
 الموصل انقسم قسمين كبيرين : قسماً اتجه
 إلى الشمال فدخل أرض الروم من سُميساط
 والحَدَث ، وقسماً كان المعتصم على رأسه
 دخل أرضهم من الشام من طرسوس
 شمالى سوريا . وأخذ القسبان المغيضان
 الموتوران يبيدان من يلقونهم من الروم
 إلا من نجا بنفسه وهرب مع تيوفيل فى
 البلاد . ويلقى المعتصم بكلاكله على أنقرة ،
 فتصبح أثرا بعد عين ، ويتحول إلى
 عمورية ويرى أسوارها الشاهقة ، فيأمر
 ببناء عرَّادات كبيرة توضع على منصَّات
 تحملها عجلات ، ويأمر بأن يوضع فوق
 العجلات أبراج توازى السور فى ارتفاعه ،
 وتتسع لعشرة رجال ، حتى تجتمع قوتهم
 على الرمي البعيد بالمجانيق . وما زالوا
 يرمون بها حتى احترق أكثر عمورية وحتى
 انصدع سورها ، ودخل الجيش الفاتح
 يقتل ويأسر ، ويقال إن عدد القتلى فى
 هذه المعركة بلغ تسعين ألفاً ، واستأسر
 للعرب عشرات الألوف كانوا يباعون
 خمسة خمسة وعشرة عشرة . وكل ذلك

وهي ليست قصيدة مديح كما
نمودنا في القصائد العربية ، بل هي
ملحمة رائعة تصور هذا المجد الحربي
الخالد الذي حققه العرب لعهد المعتصم ،
وهو يعلن في فاتحتها إيمانه بالقوة وأنها
فوق العقل وفوق الكتب مشيراً بذلك
إلى المنجمين وكتبهم وحساباتهم الفلكية
التي أنبأهم بأن المعتصم لن يفتح عمورية
في أشهر الصيف التي اختارها لفتحها ،
وأن عملياته التي أعدها لن يرافقها الظفر .
وطاشت تنبؤاتهم وحساباتهم وفتح الله
للمعتصم هذا الفتح العظيم . ويطول
أبو تمام في سخريته بعلم التنجيم وما يذكره
المنجمون من أيام السعد والنحس ومن
تحكم الأبراج في طوابع الناس ، فكل ذلك
كذب وافتراء وبهتان . ويتحدث عن هذا
النصر المبين حديث المبتهج ، فقد
تحققت أمنية طالما حلم بها العرب ،
إذ استسلمت لهم أعظم مدن الروم في
آسيا الصغرى : عمورية العتيقة منذ عهد
الإسكندر المقدوني ، بعد استعصائها على
كسرى وملوك العرب العظام ، وإذا هي
تسقط مهيضة تحت أقدام المعتصم
وجنوده البواسل ، وكأنما أصابها سريعا

جربا الخنوع والانكسار الذي فشا
في أنقرة ، فإذا شجعانها وبطارقتها يتهاوون
مخضبين بدمائهم خضاب الإسلام الدموي
الذي طالما خضب به رموس أعدائه
وأجسادهم . ويتحدث في ابتهاج مابعده
ابتهاج عن حرق عمورية ، وكل شيء
فيها بعد العزة قد ران عليه الذل ، حتى
الصخر والخشب ، فقد غطاهما سواد
الاحتراق وغمرتهما حسرة الاكتئاب ،
والسنة النار تندلع في ليلها البهيم ، حتى
صار كأنه صبح مضى بل ضحى منير ، وكأن
الظلام وغب عن لونه أو كأن الشمس
لاتزال طالعة أو كما يقول أبو تمام :
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغيب

وهو يستغل في البيت قصة يوشع
وما يقال فيها من أن الشمس تأخرت
له عن مغربها ، فكان يوم عمورية من
أيام يوشع ، إنه يوم المعجزة الخارقة في
تاريخ العرب وما أعظمه من يوم ! .
ويحاول أن يصور فرحة الجند بهذا النصر
الحربي العتيق ، فيجعل هذا اليوم لكل
منهم يوم عرس وقران ، بما اقتسموا من

السبايا الكثيرات . وتندمق الفرحة
 في قلبه ، فإذا ربيع عمورية في مرأى عينيه
 كربوع معشوقات العرب في عيون
 العاشقين الوالهيين ، يقول :
 ما رُبَّ مِيةٍ مَعْمُورًا يطوف به
 غِيلَانُ أبهى رُبٍّ من رُبِّها الخرب
 ألا الخدودُ وقد أذمين من خجلٍ
 أشهى إلي ناظري من خدِّها التَّرب
 فربيع عمورية مع ما أصابه من الحريق
 ومن التدمير والخراب ليس أقل بهاءً
 من ربيع مية في عين عاشقها ذي الرمة
 ! أو كما يسميه غيلان الذي عاش يطوف
 به ويدور حوله مشغولاً بجمالها الفاتن .
 وليست خدود عمورية مع ما أصابها من
 الجرب وخدوش النار ونمش الدخان وتراب
 الحريق أقل جمالا وفتنة وسحرًا في
 ينة من الخدود الباردة الحسن حين
 تزيدها ورود الخجل حسناً فوق حسن .
 ومضى أبو تمام يتغنى ببطولة العرب
 في هذا النصر الباهر مصوراً هزيمة تيوفيل
 وجموعه المتدحرة ، حتى قال والفرحة
 تغمر قلبه وكيانه :

خليفة الله اجازى الله سَعِيكَ عن
 جرثومة الدين والإسلام والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
 تُنَالُ إلا على جسر من التعب
 إن كان بين صروف الدهر نرحم
 موصولة أو ذمام غير مُنْقَضِب
 فبين أيامك اللاتي نُصِرْتَ بها
 وبين أيام بَدْرٍ أقرب النَّسَب
 أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم
 صُفَرَ الوجوه وجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ
 وهو دعاء للخليفة يصور التحام العروبة
 عنده بالدين الحنيف ، وهو يدعو الله
 أن يكافئ المعتصم على ما بذل في سبيل
 إعلاء كلمة الدين والعروبة ، ويصور
 فيه همة الأسلاف البعيدة وكيف كانوا
 لا يترددون في التضحية بحياتهم ،
 والتعرض للخطر مصبحين وممسين
 يبتغون أجر الآخرة . ويقرن موقعة
 عمورية إلى موقعة بدر الكبرى التي
 كانت فاتحة انتصارات الدين الحنيف ،
 وكأنه يأمل في أن تكون وقعة عمورية
 وهزيمة الروم فيها هزيمة ساحقة فاتحة
 انتصارات عربية جديدة ، لها شأن
 أي شأن ، ويتصور الروم - وقد
 نهكهم العرب وأنشعوا فيهم أظفارهم -

نَضَبَ الدَّمُ مِنْ وَجُوهِهِمْ وَاسْتَحَالَتْ
شَاحِبَةٌ بَاهِتَةٌ ، حَتَّى أَصْهَجُوا بِحَقِّ
خَلِيقَيْنِ بِأَسْمِهِمْ : بَنَى الْأَصْفَرُ ،
بَيْنَمَا اسْتَدَارَتْ مِنْ حَوْلِ أَوْجِهَ الْعَرَبِ
هَالَاتٌ جَلَالٌ وَمَهَابَةٌ رَفِيعَةٌ .

وكان المعتصم قد صمم على السير إلى
القسطنطينية والنزول على خليجها ولكن
حدثت ثورة داخلية أزعجته وصرفته عن
نيتته ، فترك عبء ذلك على أبي سعيد
الثغرى الطائى بطل حروب بابك الذى
طالما تغنى أبو تمام بانتصاراته فيها غناء
بهيجاً ، وكان المعتصم قد ولاه حلب وثغور
الشام والجزيرة ، وسرعان ما أخذ يعد
الجيوش والأسلحة والعدد لمنازلة الروم ،
ويبلغ به الطموح والاعتداد بالنفس أن
ينازلهم فى الشتاء ، وكانت الثلوج قد
ملأت الشعاب والدروب ، فلم يحجم ولم
يتردد ، بل أقدم يخترق ديار القوم ،
حتى اغتصب منهم حصنى ذى الكلاع
وأكشوثاء ، وهم يولون الأدبار ويتنادون
الفرار الفرار . ويصور أبو تمام هذا

الهجوم المباغت فى الشتاء القارص
تصويراً بارعاً إذ يقول لأبي سعيد :
لقد انصعمت والشتاء له وجـ
ه يراه الرجال جهماً قَطُوباً
طاعناً منحر الشمال مُتَبِحاً
لبلاد العدو موتاً جنوباً

فضربت الشتاء فى أخذعيه
ضربة غادرته عوداً ركوباً
لو أصحنا من بعدها لسمعنا
لقلوب الأيام منك وجيباً

وهو يصور اندفاعه إلى غزو الروم
والثلوج تملأ الطرقات وتحف به من كل
جانب ، والشتاء كالح الوجه متجهم
كأشد ما يكون الشتاء قسوة وبرداً
زمهريراً . ويتصوره هو وجنوده المنقضين
من الجنوب على حصون الروم فى الشمال
وكأنما يطعنون فى منحره ، وقد حملوا
إليهم موتاً جنوبياً أحمر لا يبقى منهم
باقية . ويتمثل الشتاء بثلوجه وزمهريره
وصقيعه كأنما كان بغيراً شرساً لا يمكن
لأحد أن يسيطر عليه أو يذلله ، فإذا هو
بضربته ضربة واحدة فى أخذعيه يستحيل
له ركوباً ذلولاً ، وإذا كل شئ يخشى

بأسه وسطوته ، حتى الزمن ، فلو أرفف
الناس السمع لوجدوا قلبه يمتلي منه
وجيباً وخفقاتاً . مبالغته ولكنها مقبولة ،
لأنها في بطل وقائع بابك والروم ، بطل
العروبة الذي لا ينازع ولا يدافع لعصر أبي
تمام . ويعود أبو سعيد إلى التوغل في أرض
الروم ، وينازله « منويل » كبير قوادهم ،
ويفر عند أول لقاء ، ويتبعه أبو سعيد
حتى ينزل « درولية » على مسيرة ثلاثة
أيام من عمورية وما يزال يركض خيله
مصعداً إلى جبال ومنحدراً إلى قيعان أودية
حتى يشرف على خليج القسطنطينية ،
وتحول بينه وبينها مياه الخليج ، وفي
ذلك يقول أبو تمام :

قَدْتُ الْجِيَادَ كَأَنَّهُنَّ أَجَادِلُ
يَقْرَى دَرُولِيَّةٌ لَهَا أَوْكَارُ
حَتَّى التَوَى مِنْ نَقْعٍ قَسَطَلَهَا عَلَى
حِيطَانِ قُسْطَنْطِينَةَ الْإِعْصَارُ
إِلَّا تَكُنْ حُصِرَتْ فَقَدْ أَضْحَى لَهَا
مِنْ تَخَوُّفٍ قَارِعٍ الْحِصَارُ حِصَارُ
وَالْمُثَى هُمُسٌ وَالنَّدَاءُ إِشَارَةٌ
خَوْفٍ انْتِقَامِكَ وَالْحَدِيثُ سِرَارُ

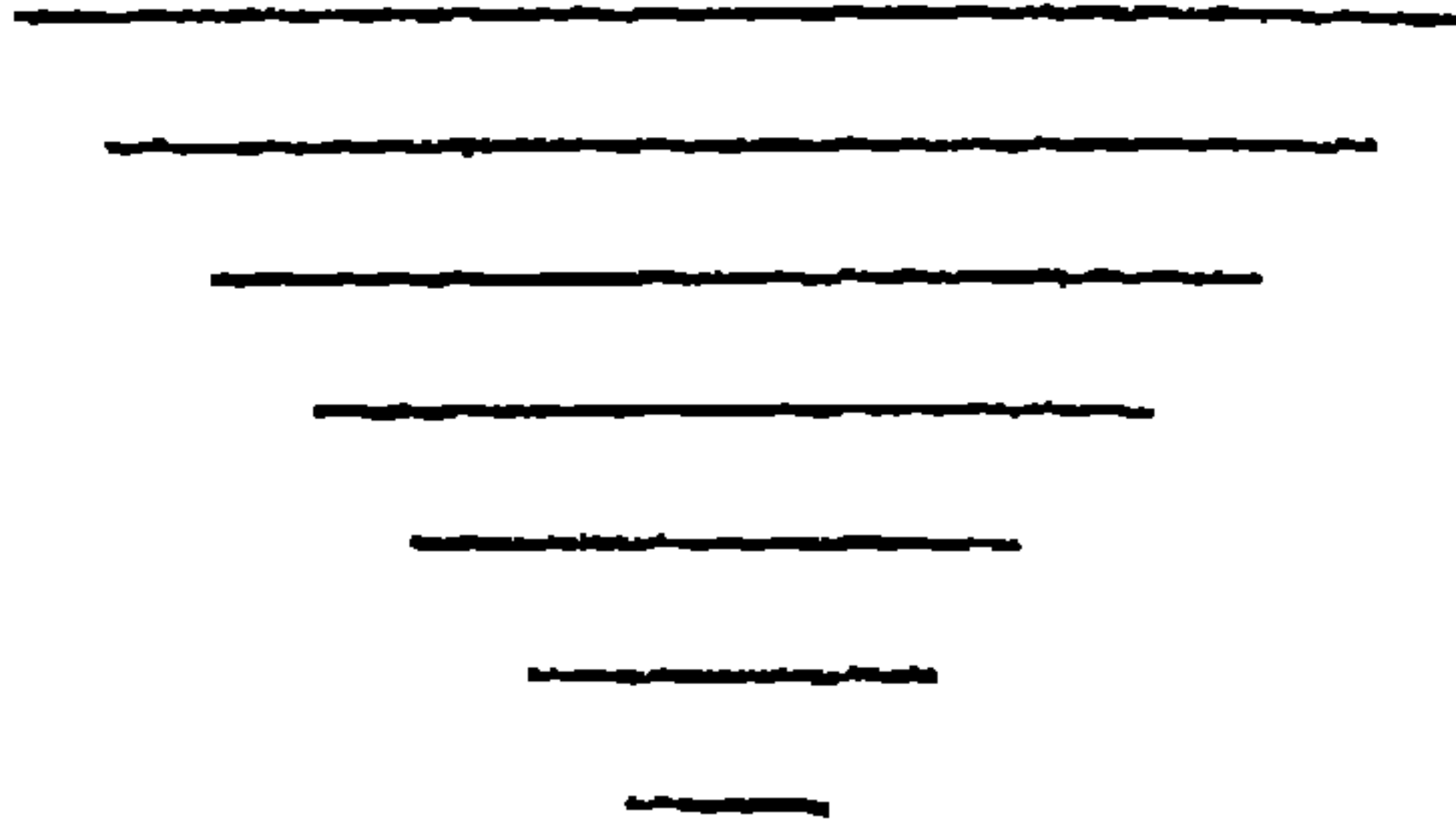
فجباد أبي سعيد حين ألت بمدينة
درولية كانت كأنها صقور في سرعة
انقضاضها من ذرى جبالها على قرى
وديانها ، وقد ظلت تعدو طارقة الأرض
بحوافرها طرقاً شديداً مشيرة من النقع
والغبار ما تطاير مع الأعاصير والرياح
حتى لصق بحيطان القسطنطينية ، وقد
غدت من الذعر الذي أمسك بخناقها
كأنها في حصار ، حتى أن المشى بها أصبح
همساً خافتاً والنداء إشارة كليله والحديث
نجوى خفية . وهذه الوقائع الأخيرة من
معارك أبي سعيد الثغرى الطائى مع الروم ليس
لها في الطبرى ولا في غيره من كتب
التاريخ أى ذكر ، ولولا أن أبا تمام سجلها
في قصائده ما عرفنا عنها أى شيئاً ،
وأشعاره بذلك تكمل تاريخنا وأمجادنا
الحربية لعصره ، بل هي الصفحات الناصعة
لهذه الأمجاد إذ استحالت فيها فناً رفيعاً
يمتع القلوب والأفئدة .

ولعل في كل ما قدمت ما يوضح صور
العروبة في شعر أبي تمام ، فقد صرح

مراراً وتكراراً بأنها تسرى في أعراقه ،
وأحس ذلك في أعماقه إحساساً دفعه إلى
الإيمان بوحدة القبائل العربية اليمنية
والعدنانية ووحدة البلدان العربية الإفريقية
والآسيوية ، وشعر في قوة بتبعات هذه
الوحدة ومسئولياتها . وكانت العروبة
تجاهد آنذاك أعداءها من الخُرُمِيَّة والروم
جهادا مستميتاً ، فانضوى تحت ألويتها
بناضل ويدافع حتى لا يجتاحها هذا الخطر
أو ذاك . وكان لا يملك من الأسلحة سوى
شعره ، فاستحال في يده قوساً ينزع عنه
إبياتاً مصمية يسدها إلى صدور الأعداء

الغاشمين ، مُشيعاً بذلك حماسة متأججة
في قلوب الجنود والشهاب من حوله ،
حتى يذيقوهم كل ما يمكن من ألوان الفتك
والبطش والنكال . واشتعلت في صدره
حينئذ الغريزة العربية غريزة الأخذ بالثأر
أقوى اشتعال ، مما جعله يستشعر في صدق
وإخلاص فرحة غامرة مع كل نصر وكل
ثأر يشق غليل العروبة المجيدة التي كانت
تتوهج في ميراث أعراقه ، وظلت تتوهج
في دمه وقلبه وروحه وحسه وشعوره ، وظل
يقدها ويمجدها ويرتل لها انشعاراتها
المظفرة أناشيد حربية خالدة .

شوقي ضيف
عضو المجمع



طَرْفٌ مِنَ الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ

للدكتور احمد عمار

(١)

نَضْرُقُ الله امرًا سمع مقالتي فادعها فأداها
كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع

وَسَطٌ وَسَطٌ وَسَطٌ

وسط : بالتسكين ظرف ، تقول جلست
وسط القوم (أى بينهم)

وسط : بالتحريك اسم . تقول جلست
وسط الدار والشجاعة وسط بين الجبن والتهور .

(وكل موضع يصلح فيه « بين » ،
فهو وسط بالتسكين وإن لم يصلح فيه
« بين » فهو وسط بالتحريك)

يقول الخافظ :

الحلم حلمان ، أشرفها حلمك عمن هو
دونك ، والصدق صدقان ، أعظمها صدقك
فيما يضررك ، والوفاء وفاآن ، أسناهما
وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه .

عاقب الناس بقدر ذنوبهم ، على قدر
احتمالهم

(محمد بن كعب القرظي)

آفة الحديث الكذب ، وآفة العلم النسيان ،
آفة الحلم السفه ، وآفة العبادة الفقرة ،
آفة الشجاعة البغي ، وآفة السباحة المن ،
آفة الجمال الخيلاء ، وآفة الحسب الفخر ،
آفة الظرف الصلف ، وآفة الجود السرف ،
آفة الرأي الهوى .

لأن يخطئ الإمام في العفو ، أحب إلى
من أن يخطئ في العقوبة .
(من الأحاديث الشريفة)

غنى مخارق يوماً في حضرة الرشيد هذا
البيت :

وإني لاحتاج إلى ظل صاحب

برق ويصفو إن كدرت عليه

فقال الرشيد : يا مخارق ، جئني بهذا

الصاحب ولك نصف الخلافة !

الخليفة المثنى

يقال للخليفة المعتصم العباسي : «الخليفة المثنى» لأنه ولد سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن منها . وهو ثامن خليفة عباسي وفتح ثمانية فتوح ، واستخلف ثمان سنين وثمانية أشهر ، وخلف ثمانية بنين وثمانى بنات !

* * *

يقال :

«عِطْفَه» ونأى بجانبه، وثلى جيده .
ولوى عنقه ، وصعّر خده ، ومال برأسه :
إذا تكبر ، وشمخ بأنفه كذلك .

* * *

ات خزنة الأموال وهم أحياء ،
وحش خزنة العلم وهم أموات .

(ابن المعتز)

* * *

كان يقال :

امش ميلا وعد مريضاً ، وأمش ميلين
وأصلح بين اثنين ، وأمش ثلاثة أميال
وإر أخاً في الله .

مُجِيرَ أم عامر

خرج قوم إلى الصيد فعرضت لهم
أم عامر وهي الضبع - فطردوها فأتعبتهم

حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي ، فاقتحمته :
فخرج إليهم الأعرابي وقال : ماشأنكم ؟
قالوا : صيدنا وطريدتنا . فقال كلا ،
والذى نفسى بيده لا تصلون إليها ما ثبت
قائم سني في يدي : فرجعوا وتركوه :
فقام إلى لقحة فحلبها ، وماء فقربه منها .
فأقبلت تلغ مرة في هذا ومرة في هذا
حتى رويت واستراحت . فبينما الأعرابي نائم
إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه
وتركته . فجاء ابن عم له يطلبه ، فإذا
هو به ميت . فأخذ قوسه وكثافته وتبع
الضبع فقتلها ، وقال :

ومن يصنع المعروف في غير أهله
بلاق الذى لا في مجرّام عامر

* * *

أنجع في الشباب ولا أعزى
أقد غفل المعزى عن مصابى
(ابن الرومي)

إن الله جميل يحب الجمال

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة
من كبر . قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون
ثوبه حسناً ونعله حسنة . قال : إن الله جميل
يحب الجمال . الكبر بطل الحق وغمط الناس ،
(مسند الإمام أحمد)

بطل الحق : دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا
وغمط الناس : احتقارهم

* * *

عمر وخولة بنت ثعلبة

مر عمر بخولة بنت ثعلبة ، والناس معه ،
فحبسته طويلا تعظه وتقبل : يا عمر ،
كان يقال لك عمير ، ثم قيل لك يا عمر ،
ثم قيل لك يا أمير المؤمنين . فاتق الله يا عمر ،
فانه من أيقن بالموت ، خاف الفوت ،
ومن أيقن بالحساب ، خاف العذاب :
فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أسمع كلام
هذه العجوز قال : ^١ إن الله تعالى سمع
قولها من فوق سبع سموات : هذه خولة
بنت ثعلبة التي أنزل الله في حقها : قد
سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكي
إلى الله ، والله لو حبستني من أول النهار
إلى آخره ما فارقتها إلا إلى صلاة مكتوبة .

وقال رجل لعمر بن الخطاب : اتق
الله يا أمير المؤمنين . فقال له رجل آخر :
أقول لأمر المؤمنين اتق الله ؟ فقال عمر :
دعه فليقلها لي ، نعيم ما قال : لا خير فيكم
إذا لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقلها
منكم :

أين تواضع عمر من كبرياء عبد الملك
ابن مروان الذي يقول : والله لو قال لي أحد :
« اتق الله » لضربت عنقه ؟

عن عمر بن الخطاب

« نادى عمر بن الخطاب بالصلاة ،
فلما اجتمع الناس وكثروا صعد المنبر

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال
أيها الناس : لقد رأيتني أرمي على خالات
لي من بني مخزوم فأقبض القبضة من التمر
والزبيب فأظل يومى وأى يوم ؟ ثم نزل
فتمال له عبد الرحمن بن عوف : يا أمير
المؤمنين ما زدت على أن حقرت نفسك !
قال : ويحك يا ابن عوف . إني خلوت بنفسى
فحدثتني قالت : أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا
تفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها نفسها !

(من كتاب سيرة عمر بن الخطاب
لابن الجوزي)

- سيّاك الله وبيّاك :

حباك : ملكك ، وأبقاك ، وأصلحك
وبيّاك ، قربك ، وبؤاك ، وقيل
نض-كك .

ب- يكون هذا اتباعاً : ولكن
لا ذباغ لا يكاد يكون بالواو وقد يكون
الواو وقد يكون ازدواجاً

وقال الشاعر :

بيّاهم إذ نزلوا الطعاما

الكبيد والمتحاء والسنا

(اللسان)

قال الأصمعي :

أصابني الأعراب مجاعة ، ففررت
بأعرابي قاعد مع زوجته على قارعة
الطريق ، وهو يقول :

مصادر مفتوحة الأول .- فَعُول

قبول - ولوع - طهور - وضوء
وقود (وقيل : وزوع من أوزع)
(اللسان)

يارب إني قاعد كما ترى

وامرأتي قاعدة كما ترى

البطن مني جائع كما ترى

فأ ترى ياربنا فيما ترى؟

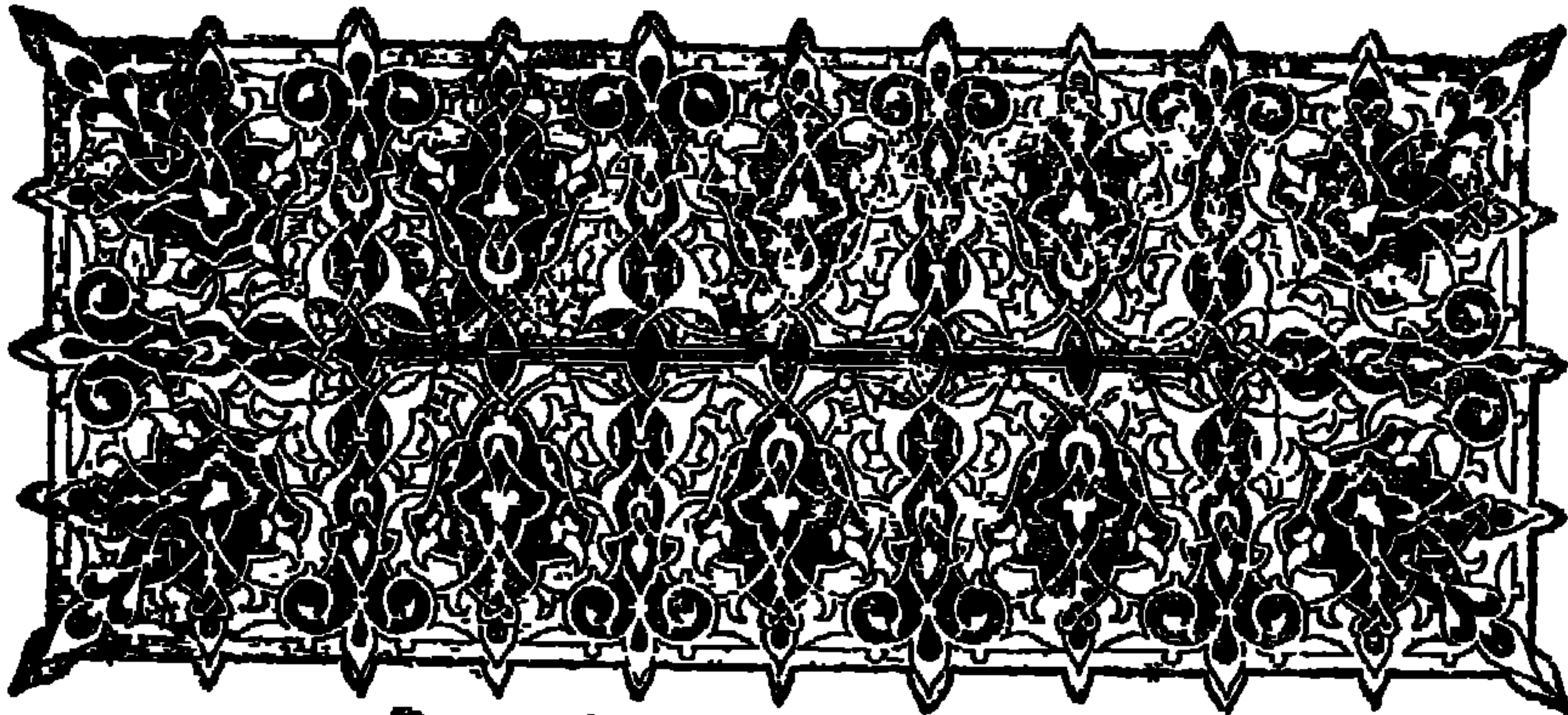
مصادر على وزن مفعول :

عجلود - محلوف - معقول - معسور -
ميسور ؟

(اللسان)

أحمد عمار
نائب رئيس المجمع

* * *



قول في الإعراب

للأستاذ محمد شوقي أمين

تلويح

١- تلويح لبعض الباحثين
المفكرين آراء في اللغة ،

عليها رونق الجدة ، وفيها تنكب
عن المؤلف ، فيسبق إليهم الناقدون
بالإنكار والإزراء ، ويتبادل الفريقان
الترامى بالوصفات ، فهؤلاء الناقدون يرمون
الباحثين بوصفة التحلل والجهل والإفساد ،
وأولئك الباحثون يدفعون ذلك بالمثل ،
فيصمون الناقلين بأنهم أهل تخلف ورجعية
وجمود .

والحق أن العلماء الأولين الذين نتلقى
عنهم نخلة الحرص والمحافظة ، ونستند إليهم
فيما نستمسك به من آراء ، كانوا أشد منا
تحرراً في تناول قضايا اللغة ، وأوفر طلاقة
في النظر والتفكير ، حين يبدو لهم جديد
من القول ، وتعرض لهم سائجة من الخطرات .

وإن « الرجعية » إلى هؤلاء الأسلاف
لجديرة أن تقبسنا روح البحث دون تخرج ، وإن
قديمهم لو أحسنوا تدبره هو أكبر عون لنا
على أن نفكر في سعة من الأفق ، وأن
نستقبل بدوات الرأي في غير حظر على العقول .

كان أولئك الأقدمون يحصون كل
ما يعرض لهم من قول ، لا يمتنع عليهم شيء
مما نسميه « الأقداس » ، يتدارسون ما وسعهم
التدارس ، فينكرون ما يعن لهم أن ينكروه ،
ويغمزون ما يريدون أن يغمزوه ، لا يرددهم
عن ذلك تهيب أو استرهاب ، ولا ينادي
عليهم بويل ولا ثبور .

بيد أنهم كانوا إذا سخطوا شيئاً سخطوه
على علم وبصيرة ، ودعموا نكيرهم بما يروج
لهم من حجة وسلطان ، فإن عارضهم أحد
كانت معارضته رد الحجة بالحجة ، وإسقاط
البرهان بالبرهان . فيدور بينهم الجدل
والنقاش رفيقاً أو غير رفيق ، في منحى
علمي تتصارع فيه الأفكار والأذهان .

ولكننا اليوم قد ننكر النهج المؤلف ، تلهياً
بالمعارضة ، وتحلياً بالتطرف ، فنتناول
على غير معرفة ، ونهجم بغير دليل ، فإذا
انبرى للدفاع مدافع كان أكبر دعواه أن
ذلك عبث بالأقداس ، وأنه افتيات على حرمت .
يجب أن يقال في شأنها : لا أساس .

ذلك هو شأن الإعراب ومكانته من اللغة؛
بحسب المحافظون فيما يحسبون أنه حرام
على البحث ، وأنه باب موصد لا يفتح
لرأى ، فهو عندهم مستعصم على الاجتهاد ،
لا يفتح "إليه فكر" ، ولا يرقى إلى مناطه قلم .

ما إن ينادى أحد من المحدثين بترك الإعراب
حتى يهب في وجهه المعارضون يرمونه
بإحدى اثنتين : "أو" كليهما معا : الأولى أنه
يفسد اللغة ، ويخل بمدلول الكلم ، والأخرى
أنه يعتل على الإعراب ، لقصوره فيه ،
وعجزه عنه . فأما إفساد اللغة ، والذهاب
بدلالات الحمل ، فهو ادعوى لا تقوم
إلا ببينة وتطبيق ، وأما القصور أو العجز
فليس له في تقويم الرأى وزن . وليكن
من أمر الدعاة إلى ترك الإعراب ما يكون ،
فإن ذلك لا يعنى تمحيص مشكلة الإعراب
في قليل أو كثير .

على أن المنادين بترك الإعراب لا يكادون
يسمعون الإنكار عليهم والإزراء بهم من
المحافظين ، حتى يوفوا لهم كيل الاتهام
بأنهم رجعيون جامدون ، يقفون عندما
قال الأول ، كأنما تأبى أسماعهم أن تأذن
لطارف من الرأى ، وإن استوفى حظه من
سلامة المنطق وسداد التفكير .

هل يعلم أصحاب الدعوة إلى مجانبة الإعراب
أنهم بدعوتهم تلك لا يشقون أفقا جديدا من

البحث ، ولا يثيرون مسألة اعزبت عن
الأقدمين فيما خلا من السنين ، وأنهم في هذه
الدعوة هم الرجعيون الذين ، يبتغون أن
يستأنفوا النظر فيما عفت عليه الحقب ،
وطوته بطون الكتب ؟

وهل يعلم المحافظون الذين يثورون في وجه
الدعوة إلى التنكب عن الإعراب أن أسلافهم
منذ ازدهار العربية ، قبل ألف من
السنين أو تزيد ، تناولوا أمر الإعراب
في مناح شتى من القواعد والأصول ،
ومالها من تفرعات وذيل ، على أساس
من جواز ترك الإعراب وتسكين أواخر
الكلام في الوصل ، فلم يقيم في وجوههم من
يصددهم عن النظر ، ويوصد دونهم باب
الاجتهاد ، ولكنهم فسحوا صدورهم للدراسة
والتعليل والتحليل ، وكان بينهم نزاع في
الرأى ، على طلاقة من الفكر ، فتركوا
لنا حصادا من البحث ، فيه للعقل غذاء
وامتناع ؟

ليس بين أيدينا من هذا الحصاد إلا نثر
قليل ، وزاد ضئيل ، فقد لعبت بذلك
الحصاد تصاريף الزمن في مواضع العصور ،
ولو حفظته لنا الأيام كله أو أكثره ،
لكننا به أوفر خبرة وأوفى إحاطة . وسنرى
في هذه العجالة أن صفحة رائعة في تناول
مشكلة الإعراب ، وإجازة تركه ، مايرحت
في ألفاظ كتاب ، فلما نحوم حوله في هذا
الصدد ظنون الباحثين في هذا المجال .

أسكنت حركات الإعراب — على مد
عصور العربية الخالية — في خمسة مصادر
مدونة^١، وهى :

أولا — قراءات القرآن .

ثانيا — الشعر الجاهلى والإسلامى .

ثالثا — إجماع الوصل مجرى الوقف
فى النحو :

رابعا — حكاية نواذر المولدين فى
الأدب :

خامسا — مشتقات الشعر من ضروب
النظم منذ العصور الوسطى
١ فى تاريخ الدول الإسلامية :

١- فأما المصدر الأول، وهو قراءات القرآن
فقد وردت فيه آيات أسكنت فيها حركات
الإعراب من كلمات شتى ، مثل : وبعولتهن
أنحق بردهن « يسكان التاء ، ومثل :
« وما بعدهم الشيطان » ، ومثل :
« إذ يبعثكم الله » يسكان الدال فهما ، ومثل :
« فتوبوا إلى بارئكم » يسكان الهمزة . وقد
تناولها علماء القراءات بالبحث ، ودرسوها
حق الدرس ، فرجعوها إلى أصولها ،
وأشبعوا القول فى تحليلها :

٢- وأما الشعر الجاهلى والإسلامى ، وهو
المصدر الثانى ، فقد وردت منه أبيات

تضم كلمات أسكنت فيها حركات الإعراب ،
مثل قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب
إنما من الله ولا واغسل

يسكان الباء فى أشرب

ومثل قول الأفيشر الأسدى :

رحت وفى رجلك ما فيها
وقد بدا هنك من المنزلة
يسكان النون فى : هنك .

ومثل قول جرير :

سيروا بنى العم فالأهواز منزلكم
ونهر تيرى ولا تعرفكم العرب

يسكان الفاء فى : تعرفكم .

ومثل قول وضاح اليمن :

إنما شعرى شهد

قد خلط بالجلجلان

يسكان الطاء فى : خلط

ومثل قول الشاعر :

إذا عوججن قلت صاحب قوم

يسكان الباء فى : صاحب .

إلى غير ذلك من الأمثلة ، وقد عد
النحاة بعضهم من ضرورة الشعر ، قال ابن
عصفور فى كتابه الضرائر : « ومن الضرورة
حذف علامتى الإعراب الضمة والكسرة
من الحرف الصحيح ، تخفيفا ، وقد جوز
سيبويه إسكان حركة الإعراب فى الشعر ،
كما جوز النحاة جميعا إسكان حركة البناء :

واستشهد سيبويه في «الكتاب» بأبيات لشعراء العرب أمكنت فيها حركات الإعراب في بعض الكلمات ، فأنكر ذلك عليه جماعة من أصحاب النحو، واعترض المبرد على ما استشهد به سيبويه من أبيات الشعر . فتصدى له ابن جنى يقول في « المختصب » :

« وأما اعتراض أبي العباس المبرد هنا على الكتاب فلانما هو على العرب لاعلى صاحب الكتاب ، لأنه حكاه كما سمعه ولا يمكن في الوزن أيضا غيره ، وقول أبي العباس : إنما الرواية : فالיום فاشرب فكأنه قال لسيبويه : كذبت على العرب ، ولم تسمع ما حكيتهم عنهم ، وإذا بلغ الأمر هذا الحد من السرف ، فقد سقطت كلفة القول معه . وكذلك إنكاره عليه أيضا قول الشاعر : وقد بدا هنك من المتزر ، فقال إنما الرواية : ! وقد بدا ذاك من المتزر . وما أطيب العروس لولا النفقة ! » .

لنا أن نتجه بالظن إلى أن الشعر الجاهلي والإسلامي كان فيه كثير من الأمثلة على إسكان حركة الإعراب ، فأصلح الرواة ، النقلة ما في الأبيات من خروج على القواعد العامة ، وهذا يتجلى في محاولة إصلاح الشواهد التي ساقها سيبويه ، صدد بحته ، حتى يبطل بها الاستشهاد . ومن المأثور عن أئمة الرواية في سوابق العهود أنهم كانوا يصلحون أشعار الأوائل . وهذا الظن أقوى

عند التأمل والترجيح من الظن بأن هذه الأبيات المستشهد بها هي التي صنع فيها إسكان حركة الإعراب لتكون شواهد مكنوبا بها على العرب ، حتى يقوم بها عمود الرأي والتخريج .

٣- وأما إجراء الوصل مجرى الوقف ، وهو ثالث المصادر ، فهو تعليل يبسطه النحاة لكي يؤولوا به ماورد من الشواهد على إسكان حركة الإعراب ، وقد عقد سيبويه فصلا في كتابه سماه : « باب الإشباع في الجر والرفع وغير الإشباع » يقول فيه : « وقد يجوز أن يسكنوا الحرف المرفوع والمجرور في الشعر ، شبهوا ذلك بكسرة فخذ ، حيث حذفوا ، فقالوا فخذ ، وبضمة عضد حيث حذفوا فقالوا : عضد ، لأن الرفع ضمة والبحرة كسرة »

وقد أشار إلى مثل ذلك ابن جنى في سر «الصناعة» فقال في حرف الميم (الفم) :

« تشديد الميم ليس من أصل الكلمة ، فمن أين أتاها ، وما وجه دخوله إليها ، فالجواب أن أصل ذلك رأيهم ثقلوا الميم في الوقف ، فقالوا : هذا فم ، كما يقولون هذا خالداً ، وهو يجعل . ثم إنهم أجروا الوصل مجرى الوقف فيما حكاه سيبويه عنهم من قولهم : ثلاثهر بعه »

ابن جنى يعنى بالثقل في فم وخالداً ويجعل : تشديد الحرف الأخير من هذه

الكلمات ، ولو تتبعنا في مسائل النحو مايتصل بإجراء الوصل مجرى الوقف لخرجنا بتوجيهات وأمثلة تزيد الأمر من وضوح وجلاء :

هذا ، وقد جاء في سيرة ابن هشام :

«قال حذيفة بن غانم :

فسرنا تهاى البلاد ونجدها

بأمنه حتى خاضت العير في البحر

فقال صاحب «الروض الأنف» في التعليق

على هذا البيت :

«لحذف الياء من هاء الكناية ، ضرورة

كما أنشد سيبويه :

« سأجعل عينيه لنفسه مقنعا »

في أبيات كثيرة أنشدها سيبويه ، وهذا

مع حذف للياء والواو ، وبقاء حركة الهاء ،

فإن سكنت الهاء بعد الحذف ، فهو أقل

الاستعمال من نحو هذا ، وأنشدوا :

ونضوان مشتاقان له أرقان

وهذا الذي ذكرناه هو في القياس

أقوى ، لأنه من باب حمل الوصل على

الوقف ، نحو قول الراجز :

لما رأى أن لادعه ولاشبع

ومنه في التنزيل كثير ، نحو إثبات هاء

السكت في الوصل ، وإثبات الألف من أنا ،

وإثبات ألف الفواصل ، نحو « وتظنون

بالله الظنونا »

ومن هذا النص يستفاد أن قلة الاستعمال في إسكان هاء الضمير دون وقف لا تنفي أن ذلك أدخل في القياس ، وأن التعليق لذلك بأنه من باب حمل الوصل على الوقف دليل أى دليل على أن النحاة كانوا يقولون بقياسية إجراء الوصل مجرى الوقف ، وإن أخذ هذا القول لها من مفهوم الكلام : وهم يدللون عليه كما نرى بكثرة وروده في التنزيل ، وسنعود إلى ذلك هنا بتفصيل .

٤-ورابع المصادر حكاية نوادر المولدين فقد أثر جهابذة الأدب أن كون ما يروى عن المولدين من النوادر بلفظه ولهجته غير معرب ، وعلى رأس الدعاة إلى ذلك «الملاحظ» وقد صنف ذلك في كتاب «البخلاء» ، نبه إلى أنهم يتعمده ، وكذلك كان صنيعه في كتاب «الحيوان» فيما حكى من قول إسحاق النظام : « إن كنت سبع فاذهب مع السباع ، وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم » وقد أتبع «الملاحظ» الحكاية قوله :

« ولاتنكر قولى وحكايتى عنه بقول

ملحون ، إذ قلت : إن كنت سبع ،

ولم أقل إن كنت سبعا ، فإن الإعراب

يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد

كلام الأعراب ، لأن سامع الكلام إنما

أعجبه تلك الصورة وتلك اللغة وتلك

العادة ، فإذا دخلت حروف الإعراب

والتحقيق والتثقيب وحولته إلى صورة

ألفاظ الأعراب الفصحاء انقلب المعنى
وفسدت صورته .

هو المصدر الخامس الأخير مشتقات الشعر
من ضروب النظم منذ العصور الوسطى
في تاريخ الدول الإسلامية ، وهي التي
شاعت في الأندلس والمغرب ومصر وغيرها
من الأمصار ، كالموالي وكان وكان وغيرها
من الأزجال والمنظومات ، فقد نظمت
غير معربة ، وكتبت كذلك ، وتناقها
المؤرخون والمؤلفون في الأدب ، جارية
الأغلب على إسكان حركة الإعراب .
وقد عقد لها ابن خلدون فصلا في مقدمته ،
وساق من أمثلتها جملة .

— ٤ —

ويبدو أن الآيات التي وردت بها بعض
القراءات في القرآن ، والآيات التي
أثرت من الشعر الجاهلي والإسلامي ،
ما أسكنت فيه حركات الإعراب ، قد
هالت جماعة النحاة ، ممن يؤثرون
طرد القواعد ، وإرساخ الأصول ،
جدًا في حياطة الإعراب ، وتمكيننا لسلطانه
على الكلام ، فانبعثوا ينكرون
القراءات التي وردت بها كلمات غير
معربة ، كما أنكروا مثل ذلك في آيات
الشعر ، واستندوا في إنكارهم إلى أن حركة
الإعراب علم على الإعراب ، وهي تدل
على المعنى ، فليس إلى ذهابها من سبيل ،
على نحو ما نحتاج اليوم به لإبقاء الإعراب

والحرص عليه ، وحسابه ركنًا من أركان
اللغة ، لا يحول ولا يزول .

وقد تصدى لهؤلاء المنكرين عالم حجة ،
انتهت إليه رئاسة النحو ، وهو أستاذ ابن
جنى ، ينقل تلميذه عنه ، ويعتز به ،
ذلك العالم هو أبو علي الفارسي ، الذي
عاش في القرن الرابع الهجري ، فقد
تناول المسألة من أطرافها المختلفة ، وعنى
بالرد على المزاعم والشبهات التي تعرض
القول بجواز إسكان حركات الإعراب
وذلك ليدحض حجة المعترضين على القراءات
التي وردت بها كلمات ساكنة في غير
الوقف .

وبحث « أبي علي الفارسي » مطوي
كتاب « الحجة في علل القراءات » ، وهو
كتاب في عدة مجلدات ، ونحن ناقلون هنا
تلك الصفحة الرائعة التي ينبعث بها ذلك
العالم النحوي من مرقد ألف سنة ، ليقول
كلمته اليوم في جواز ترك الإعراب ،
وكأنما هو يتصر بها من حيث لم يكن يقدر
في ذلك العهد ، العهد — لأولئك
الذين يريدون الآن أن ينفوا عن الإعراب
قدسيته في اللغة ،

قال « أبو علي الفارسي » :
« فأما حركة البناء فلا خلاف في تجويز
إسكانها في نحو ما ذكرنا من قول العرب
والنحويين ، وأما حركة الإعراب
فمختلف في تجويز إسكانها ، فن

الناس من ينكره. فيقول : إن إسكانها لا يجوز ، من حيث كانت علما للإعراب ، وسيبويه يجوز ذلك ، ولا يفصل بين القبيلين في الشعر ، وقد روى ذلك عن العرب ، وإذا جاءت الرواية لم ترد القياس ، فمما أنشده في ذلك قوله :

وقد بدا هنك من المتزر

وقوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب

وقال :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

ومما جاء في هذا النحو قول جرير :

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم
ونهر تيرى ولا تعرفكم العرب

ومن ذلك قول وضاح اليمن :

إنما شعري شهد

قد خلط بالحلجلان

فأسكن الفتحة في مثال الماضي ، وهذه الفتحة تشبه النصبية ، كما أن الضمة في « صاحب قوم » تشبه الرفع ، فجاز إسكان حركة الإعراب ، كما جاز تحريك إسكان البناء ، فشبه ما يدخل على المعرب من الحركة بما يدخل على المبني . كما شبهوا حركات البناء بحركات الإعراب . فن ثم أدغموا نحو رد وفروعض ونحو ذلك ، كما أدغموا

نحو يرد ويشد ، وذلك أن حركة غير الإعراب لما كانت تعاقب على ذلك ، نحو حركة الهمزة إذا سكن ما قبلها ، نحو اضرب أخاك ، ونحو حركة التقاء الساكنين ، وحركة النونين الخفيفة والشديدة ، فكما شبهوا تعاقب هذه الحركات التي للبناء على أواخر الكلم ، بتعاقب حركات الإعراب ، حتى أدغم من أدغم نحو رد واستعد ، كما يدغم نحو يرد ويستعد ، كذلك شبهوا حركة الإعراب في نحو ما ذكرنا فأسكنوا ؟

وأما من زعم أن حذف هذه الحركة لا يجوز من حيث كانت علما للإعراب ، فليس قوله بمستقيم ، وذلك أن حركات الإعراب قد تحذف لأشياء ، ألا ترى أنها تحذف في الوقف . وتحذف من الأسماء والأفعال المعتلة ، فلو كانت حركة الإعراب لا يجوز حذفها ، من حيث كانت دلالة الإعراب ، لم يجوز حذفها في هذه المواضع . فإذا جاز حذفها في هذه المواضع لعوارض تعرض ، جاز حذفها أيضا فيما ذهب إليه سيبويه ، وهو التشبيه بحركة البناء ، والجامع بينهما أنهما جميعا زائدان : وأنها قد تسقط في الوقت والاعتلال ، كما تسقط التي للبناء للتخفيف .

فإن قلت : إن سقوطها في الوقف ، إنما جاز لأنه إذا وصلت الكلمة ظهرت الحركة ، ويستدل عليها بالموضع ، قيل : وكذلك إذا سكن نحو هنك ، استدل عليه بالموضع .

فإذا فارقت هذه الصفة التي أشبهت لها
بسبع ظهرت كما تظهر التي للإعراب في
الوصل .

ومما يدل على أن هذه الحركة إذا
أسكتت كانت مرادة ، كما أن حركة
الإعراب مرادة ، قولهم : رضى ، ولقضى
الرجل ، فأسكنوا ، ولم يرجعوا الواو
والياء إلى الأصل ، حيث كانت مرادة :
كذلك تكون حركة الإعراب لما كانت
مرادة ، وإن حذفتم لم يمنع حذفها ،
بمنزلة إثباتها في الجواز ، كما كانت
الحركة فيما ذكرنا كذلك .

فإن قلت إن حركات الإعراب تدل على
المعنى ، فإذا حذفت اختلت الدلالة عليه ؛
قليل : وحركات البناء قد تدل على المعنى
وقد حذفت ، ألا ترى أن تحريك العين
في نحو اضرب يدل على معنى ، وقد جاز إسكانها
فكذلك يجوز إسكان حركة الإعراب ،
وكذلك الكسر في نحو حذر ، والضم في نحو
حذر .

فإن قلت مقالة أبي على الفارسي ، يوطى
بها الجواز إسكان حركة الإعراب ، ويدفع
ما يعترض هذا الرأي من مزاعم وشبهات :

— ٥ —

والمتنبع لما كتبه النحاة المتأخرون يجد
الكثير من أقوالهم في تحليل ظاهرة الإسكان
فيما حقه الإعراب ، ونحن ذاكرون هنا
طرفاً منها :

(أ) جاء في التصريح على التوضيح :

«مسألة : قد يعطى الوصل حكم الوقف
من إسكان مجرد... وذلك قليل في الكلام
المنثور بالنسبة إلى عدمه ، كثير في الشعر
لأنه محل الخروج عن القياس . فنه قراءة
بعضهم : « وجئتك من سبأ بنياً بإسكان
همزة سبأ في الوصل ، وقراءة غير حمزة
والكسائي : لم يأتسبه وانظر ، فهمدهم
اقتده قل ، بإثبات هاء السكت في الدرج
فيها ، وأتى بانظر في الأول وقل في الثاني
ليبين كيفية الوصل . »

(ب) جاء في « مجمع الهوامع » للسيوطي :

« اختلف في جواز حذف الحركة الظاهرة
من الأسماء والأفعال للصحيحة على أقوال :
أحدها الجواز مطلقاً ، وعليه ابن مالك .
وقال : إن أبا عمرو حكاه عن لغة تميم ،
وخرج عليه قراءة : « وبعلتني أحق
بردهن » بسكون التاء ، وروسلنا بسكون
اللام ، « فتوبه إلى بارئكم » ، « ومكر
السيء » ، « وما يشعركم » و « يأمركم »
بسكون أواخرها . وقول الشاعر : « وقد
بدا هنك من المثر » ، وقوله : « فاليوم

أشرب غير مستحقب » : والثاني : المنع
مطلقاً في الشعر وغيره ، وعليه المبرد ،
وقال : الرواية في البيتين : وقد بدا ذاك ،
فاليوم أشتى ، والثالث : الجواز في الشعر ،
والمنع في الاختيار ، وعليه الجمهور .

قال أبو حيان : وإذا ثبت نقل أبي عمرو ، وأن ذلك لغة تميم ، كان حجة على المذهبين « (ج) جاء في «خزانة الأدب» للبغدادى :

« قال الشاعر :

فأنت طلاق والطلاق عزيزة

ثلاثاً ومن يجنى أعق وأظلم

روى الجماعة : ومن يخرق ؟ فقال

ابن يعيش : من شرطية . ورد عليه

الداميني بأنه يلزمه حذف الفاء والمبتدأ

من جملة الجزاء : والتقدير : فهو أعق

وأظلم . وليس هذا بمتعين ، لجواز أن تكون

موصولة ، وتسكين القاف للتخفيف :

كقراءة أبي عمرو : وما يشعركم بالإسكان

الراء : وأعق خبر من الموصولة ، فلا

حذف ولا ضرورة ولا قبح . اهـ . والذي

ذكره الجعبرى أن وجه الإسكان فيه طلب

التخفيف عند اجتماع ثلاث حركات ثقال

من نوع واحد أو نوعين ، ويخرق ليسر

منها . وأما التسكين في قوله : فاليوم

أشرب فقد قيل إنه للضرورة . »

(د) جاء في حاشية « الخضرى » :

« تنمة - بتي مما تقدر فيه الحركات ماسكن

للتخفيف ، كتسكين « بارئكم » و « بعولتهن »

و « رسلنا » و « مكر السوء » و « يأمركم »

و « يشعركم » . والصحيح جوازه ثراً ،

لقراءة به في السبع » :

- ٦ -

ولنا على ما أوردناه من نصوص النحاة

تعقيبات قصار :

أولاً - أن إعطاء الوصل حكم الوقف معترف بأنه تعليل لغوى لظاهرة الإسكان في بعض الكلمات الواردة في أفصح النصوص .

ثانياً - أن الكلمات التي وردت في قراءات القرآن ساكنة الأواخر في حال الوصل مروية عند جمهوره من القراء ، وفي مقدمتهم أبو عمرو ، وهذه الروايات وثيقة في سندها اللغوى :

ثالثاً - أن الإسكان في موضع التحريك محكى عن لغة « تميم » ، وهذا ما جعل « أبا حيان » يقول إن ثبوت نقل « أبي عمرو » وأن ذلك لغة تميم حجة على من يمنع الإسكان مطلقاً ، كما أنه حجة على من يقول إنه جائز في الشعر ، ممنوع الاختيسار

رابعاً - أن « ابن مالك » يتبنى القول

بجواز الإسكان مطلقاً في الشعر وغيره ،

وقد أحسن صاحب التصريح في قوله : إن

ذلك قليل في الكلام المنشور بالنسبة إلى عدمه ،

والمراد بالقلة هنا قلة النسبة . وليس المراد

القلة التي تمنع الإجازة . وفي هذا بيان دقيق :

خامساً - يلاحظ أن « المبرد » وغيره

يعالجون الأبيات التي ورد فيها الإسكان ،

بتغيير وتبديل ، لتحقيق أطراد القاعدة العامة

في الإعراب :

ولكن روايات القراء المعتمدة التي

جاء فيها الإسكان تقف في وجه المانعين ،

لا يجدون عنها حولا ، ولا يستطيعون فيها

صرفاً ولا عدلاً .

بعض المراجع :

- ١ - الحجة - لأبي على الفارسي .
 - ٢ - الخصائص - لابن جني (باب إجراء المتصل مجرى المنفصل) .
 - ٣ - المحتسب لابن جني - ١ - ١٠٤ .
 - ٤ - الرضى - باب الوقف -
 - ٥ - شرح المفصل للزخشرى وابن يعيش
 - ج ٥ - ٨٩ و ج ٩ - ٨١ .
 - ٦ - الهمع - للسيوطي .
 - ٧ - النشر - للجزري .
 - ٨ - الروض الأنف للسيهلي .
 - ١ - ١١٦ .
 - ٩ - خزانة الأدب - ج ٣ - ٤٢٢ .
 - ١٠ - التصريح على التوضيح ١ - ١٠٤
 - ٢ - ٤٣٣
 - ١١ - الضرائر - للألوسي ٢٧٠ .
 - ١٢ - حاشية الصبان - باب الوقف :
- وأي كان ، فإذا شئنا أن ندرس الدعوة إلى ترك الإعراب ، فلنتجاف عن القول بأن ذلك جحود لأصول اللغة ، وأنه عبث بأقداسها ، كما تجافى عن ذلك من ترجع إليهم ونأنس بهم من سلفنا العلمي .
- وليكن بحثنا في هذه المشكلة على أساس من تقدير الحاجة وتقدير الأثر الذي ينجم عن ترك حركات الإعراب ، والموازنة بين ما يفوتنا بهذا الترك ، وما نفيده منه .
- وإذن يمضي البحث طلباً حراً على بصيرة وهدى .
- وعسى أن يكون هذا التوجيه سبيلاً إلى النظر في مشكلة الإعراب ، على ضوء جديد ، في مسلك رشيد :

محمد شوقي أمين
عضو المجمع



مظاهر زهد أبي القدر

للككتور احمد الحوفي

عضو المجمع

كان لزهد أبي العلاء المعري أسباب
تحدثت عنها في المقال السابق، وكان لهذا
الزهد عدة مظاهر أخذ بها نفسه، وتشدد
في التزامها .

١ - العزلة :

ومهما يكن من شيء فقد كان لا يخالط
الناس هذا الخلاط الذي نعرفه ونألفه .
أما سبب إثارة العزلة فسوء رأيه في
الناس لأنهم في عقيدته ينافقون ويخادعون ،
يبدون الطيبة والطهارة والنبالة . ولو أطلعت
على مافي قلوبهم لوليت منهم فراراً ،
وللثت منهم رعباً :
يلقاك بالماء النّيمير الفتى
وفي ضمير النفس نارٌ تقيد^(١)
يعطيك لفظاً ليناً مسه
ومثل حذّ السيف ما يعتقد
يروقك مظهرهم ، ويسوؤك مخبرهم .
وأكرمهم خلقاً عبداً لمنافعه ، وأشرف من

من هذه المظاهر أنه إعتزل الناس عن
روية وعقيدة ، وقد اعتزم أن يعتزلهم
بعد أن استشار أصدقاءه ببغداد قبيل
رحيله منها ، بدلنا على هذا رسالة كتبها
إلى أهل المعرة ينهاهم فيها عن الحفاوة
بقدمه ، ويخبرهم بعزمه على العزلة .

فهل استطاع أن يحقق ما اعتزم ؟

وكيف والمعجبون به من الخلان والطلاب
يسارعون إليه وهو لا يردهم عن مجلسه
حياء منه ؟

(١) تقد : تتقد

أشرفهم جلمود صلد لايعتدى ولايفترى

يخسُنَ مرأى لهنى آدم

وكلهم فى اللوق لايعذب

ما فيهم بر ولا ناسك

إلا إلى نفع له يُجذب

وأفضل من أفضلهم صخرة

لانتظم الناس ولا تكذب

والبعد عنهم نجاة من أمراضهم ، ومخالطتهم

تفسد العقل ، لأنهم متخلفون فى الفهم ،

مولعون بتلبيس الدين بالخرافات :

بعدى من الناس برئ من سقامهم

وقربهم للحج والدين أدواء

والخير فى تجنبهم لتأمن شرهم ومقتهم

ونكرانهم للجميل :

وجانب الناس تأمن سوء فعلهم

وأن تكون لدى الجلاس ممقوتا

لا بد من أن يلزموا كل من صحبوا

ولو أراهم حصى المغزاء ياقوتا^(١)

والليب الحازم من لا يكشف لهم عن

سر عقيدته :

لاتخيرن بكثور دينك معشرا

شطرأ وإن تفعل فأنت مغرر^(٢)

واصمت فإن الصمت يكفى أهله

والنطق يظهر كائناً ويقرر

ولاخير فى العالم كله ، وشر ما فيه ناسه

قد فاضت الدنيا بأدناسها

على برايساها وأجناسها

والشر فى العالم حتى التى

مكسها من فقل عرناسها

وكل حتى فوقها عالم

ومساها أظلم من ناسها^(٣)

٢ - سوء رأيه فى الفطرة الانسانية :

لماذا نقم أبو العلاء من الناس ؟ ولماذا

باعد بينه وبينهم ؟

أكان السبب سوء خلقهم فحسب ؟

أحسب أن المجتمع العريض الطويل

الكبير فى الشام والعراق لم يخل من

(١) المغزاء : الأرض الصلبة

(٢) الشطر : جمع شاطر وهو الخبيث

(٣) العرناس : موضع القطن الذى تنزله المرأة والمراد المنزل

أناس ذوى دين وخلق فيرضى عنهم -
أبو العلاء .

فلا بد أن يكون هنالك سبب آخر
لضيقة الناس ؛ وهذا السبب يتصل
برأيه في أصل الفطرة الإنسانية .

ولقد اختلف الفلاسفة منذ زمن قديم
في نزعات الفطرة الإنسانية الأصيلة ،
أخير هي أم شر ؟

أما سقراط فذهب إلى خيريتها ،
ورأى أن نفس الطفل كالصفحة البيضاء
مستعدة لأن تتأثر بالخير وبالشر .

وأما أفلاطون الفيلسوف المصرى فذهب
إلى أن الفطرة الأصيلة شر ، لأن النفس
جوهر مستقل مجرد هبطت من العالم
العلوى إلى العالم المادى ، فاصطبغت بالشر ،
ويمكن التسامى بها بتصفيتها من أضرار
المادة وحرمان الجسم من لذاته ، وتجريده
من زخارف الحياة ، وأخذ بالعلوم ،
واعتزال الناس ، وعندئذ تنهياً النفس
للاتصال بالعالم العلوى والالتئاس بمبدعها .
ولقد كانت لهذه الفكرة الأفلاطونية

دولة وصوله في القرن الثامن عشر ، إذ
اعتنقها وتغالى فيها اليسوعيون والينسيون
حملة ألوية التعليم ، وألفوا الكتب ، وشادوا
المدارس ، ومنوا نظم التعليم متأثرين
بأن الفطرة شر ، وصالحها بالعقاب الصارم
والثواب المغرى .

ثم جاء روسو فزلزل هذه الدعائم
بذلاقة لسانه ، وصلابة بيانه ، فوصلت
دعوته إلى أعماق النفوس العاقلة ، وكثر
مؤيدوه ، وكتب لآرائه النصر .

لكن الفيلسوف كانت جاء بعد روسو
فأثبت أن الطفل منذ ولادته إلى بلوغه
سناً معينة خال من الميل إلى الخير والشر ،
لأنه لا يفكر فيما يعمل أو يقول .

أما دستورنا الصحيح الذى لا يأتى به
باطل من بين يديه ولا من خلفه فيقرر
أن الطفل يولد مستعداً للخير وللشر معاً ،
إِذ قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً
وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »^(١) وقال
سبحانه : « ونفِيسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا
فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا »^(٢) .

(١) سورة البلد ٨ - ١٠

(٢) سورة الشمس ٧ - ٨

فإلى أى وجهة جناح أبو العلاء ؟

إن بواعث زهده وما سبق من مظاهر هذا الزهد تؤكد أنه لا يمكن أن يذهب إلى خيرية الفطرة ، لأنه ساخط متشائم مبغض للناس ذام لطباعهم . لهذا كان الانسان فى رأيهِ شريراً بطبعه ، ومن العسير إصلاحه ، وقد كلف بهذه الفكرة ورددها فى شعره وفى نشره ، وكلف بها فطيقها على حياته وعلى معاملاته فزهده ، واعتزل ، وأعزب .

وقد افتن فى ذم الإنسان ، وإن كان لم يبرىء نفسه هو من الذم والهوان : إن حازت الناس أخلاقاً يقاس بها فإنهم عند سوء الطبع أشواء إن كان كل بنى حواء يشبهنى فبئس ما ولدت للناس حواء وقال :

وفائدة النوم الخروج بأهلكه عن عالم هو بالأذى مجبول ولم يكن الناس يوماً صُلاًحاً ففسدوا ، أو أتقياء ففجروا ، وإنما هم من طينة الشر خلقوا : وهكذا كان أهل الأرض منذ فطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

وفى محاورته للغراب وصف الإنسان

بالجور وفكران الجميل :
جرّ يا غراب وافسد لن ترى أحداً
إلا مسيئاً وأى الخلق لم يجر
فخذ من الزرع ما يكفيك عن عرض
وحاول الرزق فى العالى من الشجر
لو كنت حافظ أثمار لهم ينعت
ثم اقتربت لما أدخلوك من حجر

٣ - سخطه على الحياة :

تسخط المعرى حياته ، وتبرم بوجوده وكان للدنيا قالياً ، لم يزل يسبها ويقرعها باللوم حتى صار أكثر الشعراء لها ذماً ، لهذا تمنى للوليد ألا يولد حياً ، وتمنى للحنى أن يفنى :

فليت وليدا مات ساعة وضعه :
ولم يرتضع من أمه النفساء
بل لقد كان الخلق بهذا العالم لا يوجد :
خير لآدم والخلق الذى خلقوا

من ظهرة أن يكونوا قبل ما خلقوا
والدنيا مقبرة لا تستحق تكالب الناس عليها :

أصاح الدنيا تشابه ميتة
ونحن حواليتها الكلاب النوايح
فمن ظل منها آكلاً فهو خاسر
ومن راح عنها ساغباً فهو أرباح

وقال :

لاتلبس الدنيا فإن لباسها
سقمٌ وعرَّ الجسمَ من أثوابها
ولتفعل النفسُ الجميلُ لأنه
خيرٌ وأحسن لا لأجل ثوابها

وقال :

أغنى الأنام تقيُّ في ذُرا جبل
يرضى القليلَ ويأبى الوشى والتاجا

وأفقر الناس في دنياهم ملك
يُضحي إلى اللُجب الجرار محتاجا

٤ - العزوبة :

لم يكن عجيباً أن آثر أبو العلاء -
العزوبة ، فلم يتزوج ، ونصح بالإعراض
عن الزواج ، لتقطع هذه الحياة بانقطاع
النسل ، فالنسل جنابة على أبنائنا الأبرياء
لأنه يلقيهم في عالم مسجور بالشورور ،
وقد أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى على

وما جنيت على أحد

ولكن ماذا يفعل الرجل الصحيح
الجسد إذا ألحت عليه الغريزة ؟
أيجترح إثماً ؟ أم يتزوج ؟

يجيب أبو العلاء بأن له أن يتزوج ،
ولكن عليه ألا ينسل ، وأى عاقل يبيع
لنفسه الإنسال للشقاء ثم للفناء :
نصحتك لاتنكح فإن خفت مأثماً
فأعرس ولا تُنسل فذلك أحزمُ

وكل امرئ نجرع في هذه الحياة
كؤوساً مرة ، واصطلى بلهب الشدائد مرة
بعد مرة ، فمن العدل ألا ينسل فينتقم
من الأبرياء والمستورين وراء حجب
الغيب :

وألصاك فيها والداك فلا تضع
بها ولدا يلقي الشدائد والنكرا

اعلى أن الذرية تشقى الآباء والأمهات :
صحبتك فاستفدت بهن ولداً
أصابك من أذاتك بالسَّامات
ومن رُزق البنين فغير ناء
بذلك عن نوائب مُسَقِّمات

فمن ثكل يُهابُ ومن عقوق
وأرزاء يجئن مصممات
وإن تُعطَ البناتِ فأى بُوس
تبيّن في وجوه مُقسِّمات
يُردن بعولةٍ ويُردن حلياً
ويلقين الخطوب ملوّمات

وهو إلى تخرجه من النسل رحمة
بالأبناء، وخشية من مشقاتهم وعقوقهم
كان سبب الظن بالمرأة، يشك في حصانتها
وفي وفائها لزوجها :

وما تمنع الخود الحصان حصونها
ولو أن أبراج السماء حصونها
وقال :

لا تلدنُون من النساء
فإن غب الأرى مُر^(١)
وكراهيته للنساء جعلته يؤثر موتهن ،
ويعتده نعمة :

ودفن الغانيات إهن أولى
من الكليل المنية والخلدور
وجعلته يفضل حياة الرهبان :
ويعجبني عيش الذين تهربوا

سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
هـ - الرحمة بالحيوان ، وإيثار النبات :

كان رقيق القلب رحيمًا ، يعتقد أن
ذبح الحيوان قسوة وعدوان ، وينشأ عنه يتم
الولد أو تكل الوالدة ، ولعله تأثر في
هذا بمذهب الهراهمة الذين يحرمون الحيوان
وننتاجه .

ولذلك عاش نباتيًا ، ولهذا المذهب
النباتي في عصرنا أنصار لهم حججهم .
ولخصومهم ردود وحجج ، فالنباتيون
يتذرعون بأن أمعاء الإنسان طوال وأمعاء
أكلة اللحوم قصار ، لئلا يطول مكث
اللحم بها فيتعفن ويضر ، ويقولون إن في
النبات العناصر الغذائية كلها ، وإن
الاقتصار عليها ينجي من أمراض قد
ينقلها لحم الحيوان ، ويرون أن ذبح
الحيوان قسوة واعتداء ، وأن حرمانه
نتاجه ظلم وجشع ، ثم إن النبات أرخص
من اللحم .

اعتنق أبو العلاء هذا المذهب خمسا
وأربعين سنة عن عقيدة ، ودعا مرارًا
في شعره إلى متابعة هذا المذهب ، فنهى
عن أكل اللحم والسماك والبيض واللبن
والطير وعسل النحل :

فلا تأكلن ما أخرج البحر ظلالا
ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولابيض أمات أرادت صريحا
لأطفالها دون الغواني الصرائح

(١) الأرى: عسل النحل .

ولانفجعت الطير وهي غوافل
 بما وضعت فالظلم شر القبائح
 ودع ضرب النحل الذي بكرت له
 كواسب من أزهار نبئت فوائج^(١)
 فما أحرزته كى يكون لغيرها
 ولا جمعه للنسدى والمناج
 وقال :

فلا أفجع الأم في الرضيع ولا
 أشرك هذا الغرير في اللبن^(٢)

عاش نهاتياً، يمنع نفسه اللحم ،
 ولا يشرب اللبن ، ولا يذوق العجين ،
 ولا يأكل البيض ، فلما مرض مرضه
 الأخير أشار الطبيب بأن يطعم فروجا
 ليتقوى به ، لكنه حيناً قدم إليه أمسكه
 وقال : استضعفوك فأهاتوك ، هلاً قدموا
 شهل الأسد ؟

ومن الإنصاف للمعري أن نذكر أنه
 لم يحرم الحيوان ونتاجه تحريماً ، وكيف
 يحرمه وهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى
 أحله ، ويعلم أن الحيوان يتكاثر ، فلو خلى

وسيب لضائق به الأرض بما رحبت
 ولنفدت الأعوات ، ولما البشر جوعاً .
 إنما استبشع المعري ذبح الحيوان
 والسطو على ثمراته ، ورحمه ، ورأف به ،
 وعسى أن يكون قد أراد بذلك حسن
 المثوبة ، واقد يدل على أن الهاعث الرأفة
 لا التحريم قوله :

تصريح كفك برغوئاً طفرت به
 أبر من درهم تعطيه محتاجاً

وسئل عن تحريمه الحيوان وقد أحله
 الله ، فقال : أنا أتركه زهداً ورحمة ،
 ورد على من ادعى أن ترك اللحم
 ذميم بقوله : « ولو أخذ بهذا المذهب لوجب
 على الإنسان ألا يصلى صلاة إلا ما افترض
 عليه ، لأن ما زاد على ذلك أداة إلى كلفة ،
 والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك ، ولو وجب
 أن الذى له مال كثير إذا أخرج عن الذهب
 ربع العشر لا يحسن به أن يزيد على ذلك » .
 فهو يعلم أن الله عز وجل أحل لحم الحيوان
 وأباحه ، ولكنه يتوقى عواقب الذبح
 واغتصاب النتاج .

(١) ضرب النحل : صليها .

(٢) الغرير : ولد البقرة والنعجة والماعز .

وقد لقيه رجل فسأله : لم لاتأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان ، قال الرجل : فما تقول في السباع التي لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ فإن كان لذلك خالق فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطوائع هي المحدثه لذلك فما أنت بأحلق منها ، فسكت أبو العلاء .

٦ - الجبر :

لم يكن بلد لهذا الشاعر الفيلسوف المرزوء المتهرم أن يدين بالجبر ، ولعله صاعل نفسه : لم هذه الفوضى الضاربة في أعماق المجتمع ؟

ولم هذا التباين بين أفراده وطبقاته ؟ وهل تخير الأتقياء في حياتهم الشقاوة ؟ وهل آثر أحد لنفسه الهوى والعيب والفقر والقهج وفقدان النصير ؟

لو بوده لنعم بنور عينيه ، ولسعد بثروة واسعة ، ولا ختال في برد من الجمال ، ولكان ظهيرا ونصيرا لكل ضعيف وفقير ، ولكن هكذا اختير له ، وهكذا وجد نفسه لا حول له ولا طول في تغيير الواقع وإن جهد ، فما بال الناس

يجهلون الحق ، ويجحدون الواقع ، فينكرون أننا مسيرون ؟

آمن بالجبر ، ونص في مقدمة اللزوميات أنه مجبر على نظم هذا الديوان ، وأنه آلفه بتأثير قوة لا يعرف حقيقتها ، وكرر الجبر في مواضع شتى ، واحتج له ، وعزا إليه كل عمل ، فنحن نستهل على الدنيا بغير اختيار ، ونقارقها على اضطرار :

المرء يقدم دنياه على خطر
بالكره منه وينأها على مسخط

وقال :

خرجتُ إلى ذي الدار كرهاً ورحلتى
إلى غيرها بالرغم والله شاهد
فهل أنا فيما بين ذينك مُجبر
على عمل أم مستطيع فجاهد ؟

٧ - التخشن :

التزم أبو العلاء نظاماً قاسياً في حياته ، حملة على الشظف من العيش والتخشن من الحياة ، والقناعة بما نالت يداها ، وقال :

قنعتُ فخلتُ أن النجم دوني
وبريآن التَّقنع والجهادُ

ولم يجالس الناس على مائدة ، ولم
يره أحد يأكل ، لأنه كان إذا أراد الطعام
أوى إلى نفق له فيأكل فيه ، وكان طعامه
العدس ، وحلواه التين ، قال :

يُقْنِعُنِي بُلْسُنٌ بِمَارَسٍ لِي
فَإِنْ أَتَنَى حَلَاةَ فَبُلْسٍ^(١)

وكان يلبس ثياباً من القطن غلاظاً ،
ويفترش اللبد في الشتاء ، وحصر البردى
في الصيف .

وجانب الخمر ، وحرّمها ديناً وعقلاً
وصحة ، وألف في ذمها كتاباً سماه (حماسة
الراح) ، ومن قوله فيها :

يا بلدوى ألق المدامة إن الخمر
بأثت كثيرة الأبن^(٢)
آليت ما سمعت أنسا بخل
يوماً ولا شجعت أخا جهن

وقضى حياته متزمتاً مكتئباً يرى أن
الضحك جنون :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان الهسيطة أن يبكوا
تعطمننا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعادُ له سبك

وقال :

فأفرق من الضحك واحتر أن تحالفه
أما ترى الغنم لما استضحك انتحبا
عفا الله عن أبي العلاء ، لقد كان
شاعراً فيلسوفاً ، سبق عصره ، وما زال
إلى اليوم يدرس في الشرق وفي الغرب
دراسة تنم عن تقديره وإكباره .

أحمد الحوفي
عفسو المجمع

(١) البلن : العدس : البلن : التين

(٢) الابن : جمع أبنة وهي العنب .

تحقيق لسان العرب

- ٧ -

دُرُوسُ عَبْدِ السَّلَامِ هَارُون

- ٨٨٨ - (أبل) : ٢٣ وببيروت ١١: ٥ والمخطوطة ، قول أبي ذؤيب الهذلي :
بها أبلت شهرى ربيع كلاهما
فقد مارَ فيها نسوَّها واقترارها
وصواب الرواية « به » كما في ديوان
الهذليين ١: ٢٣ وشرح السكرى ،
والمقاييس والصحاح (أبل) . كما أن
الصواب أيضاً « كليهما » فهي توكيد
لشهرى ربيع .
- ٨٨٩ - (أبل) ٥ : ١٤ والمخطوطة :
* أبابيل هطلى من مُسراجٍ ومُهمَل *
والوجه « هطلى » كما في اللسان
(هطل ٢٢٤) والصحاح (هطل) أيضاً .
وقد وردت على الصواب في طبعة بيروت ه
والهطلى من الإبل : التي تمشى رويداً .
- ٨٩٠ - (أبل) ٦ : ٢٢ وببيروت ٦ :
« والأَيْبَلُ صاحب الناقوس الذى ينقُس
النصارى بناقوسه يدعوهم به إلى الصلاة »
- ووردت كلمة « ينقُس » في المخطوطة
مهملة النقط فيما عدا القوافى التى نقطت
بنقطتين ووضع شدة فوقها . والوجه في
ذلك كله « ينقُس » كما في اللسان
والقاموس . من النَّقْس ، وهو ضرب
الناقوس . وفي حديث بدء الأذان :
« حتى نقسوا أو كادوا ينقسون حتى
رأى عبد الله بن زيد الأذان » .
- أما الغنقيس فهو جعل النقس
الدواة ، وهو المداد .
- ٨٩١ - (بغل) ٦٣ : ٩ وببيروت ٦٠
والمخطوطة كذلك : « البغل هذا الحيوان
السحاج الذى يُركب » . ولا وجه للسحج
هنا . والصواب « الشحاج » بالشين
العجمة ، من الشحيج والشحاج ، وهو
صوت البغل ، وبعض أصوات الحمار .
وأما السحج فهو الخدش والعض ،
فليس مراداً هنا .

١٥٧- (بقل) ٦٤ : ٩ وببيروت ٦١

قول أبي النجم :

* يلمحَن من كلِّ غَميسٍ مُهَقِّلٍ *

وليس للَّمَح هنا وجه، والوجه «يَلْمَحُن»
بالجيم . واللمج : الأكل ، أو هو الأكل
بأدنى الفم ، ومنه قول لبيد يصف عَيْرًا :

يلمجُ البارض لمجاً في الندى

من مرابيحِ رِياضٍ ورِجَلٍ

٨٩٣- (بقل) ٦٤ : ٢٥ وببيروت

٦١ : « قال مالك بن خويلد الخزاعي

الهللي :

تالله يهتي على الأيام مبتقل
جونُ السَّراةِ رباعٍ منه غردُ

وفي المخطوطة بـ « الحراعي » ، صوابهما
جميعاً « الخناعي » . نسبة إلى نخاعة
ابن سعد بن هذيل . وليس في الهذليين
خزاعة ، إنما خزاعة من عامر بن قمعة بن
الياس بن مضر . وهذيل هم بنو مدركة
ابن الياس بن مضر . ومع هذا إن صواب
نسبة البيت لأبي ذؤيب الهللي ، في ديوان
الهذليين ١ : ١٢٤ وشرح السكري ١ : ٥٦
وهو مطلع قصيدة له .

٨٩٤- (بلل) ٦٨ : ٢٠ وببيروت ٦٥

وأصل المقاييس ١ : ١٩٠ قول الشاعر :

ينفَرَن بالحيجاء شاءَ ضُعائد

ومن جانب الوادي الحمام المبللا

وجاء في حاشية مصحح اللسان :

« قوله بالحيجاء هكذا في الأصل وشرح
القاموس . وخرره . » وقد أخطأ المصحح
كذلك ، فإن الذي في الأصل هو « بالحيجا »
مهملة النقط لا بالجيم كما ذكر ، وصواب

نصه « بالحيجاء » كما في شرح

القصائد السبع الطوال ٥٦٣ . وجاء في

اللسان (حا ٣٣٣) في الجزء العشرين :

« أبو زيد : حاحيت بالمعزى حِجاءٌ

ومحاحة : صحت بها . ثم ذكر قولاً آخر

يصحح ضبطها بفتح الحاء لا بكسرها .

وفي القاموس (حيج) : « حاحيتُ

حِجاءً ، مُثِّل به في كُتُب التصريف ولم

يفسّر . وقال الأَخفش : لانظير له

سوى عاعيت وهاهيت » . وضُعائد :

موضع .

٨٩٥- (بلل) ٧٤ : ١٦ وببيروت ٧٠

قول الراجز :

وبلدة ما الإنس من آهالها

تري بها العوق من وثالها

وفي المخطوطة : « من وثالها » بالواو
كذلك ، وبالياء المنقوطة بنقطتين وفوقها
همزة . وكلاهما خطأ ، والصواب : « من
رثالها » ، جمع رأل ، وهو ولد النعام
أو الحولئ منها . والعوهق من النعام :
الطويل .

٨٩٦ - (ثل) ٨٣ : ١٦ وبيروت ٧٩
والمخطوطة : وقوله ، أنشده سيهويه :
طويل مثل العنق أشرف كاهلاً
رحيب . . . الجوف معتدل الجرم

وقال مصحح بولاق : « كذا وقع هذا
الهياض بالأصل » . وبالرجوع إلى سيهويه
٨١ : ١ بولاق و ١٦٢ : ١ من نسختي
فجدد عجز البيت ، مع نسبه إلى عمرو
ابن عمار النهدي :

* أَشَقُّ رَحِيبِ الْجَوْفِ مُعْتَدِلُ الْجَرَمِ *
وكان ينبغي أن يكون البياض في
أول العجز ، لا بعد أول كلمة منه .

٨٩٧ - (ثل) ٨٦ : ١٣ وبيروت ٨٢
لأمية بن أبي الصلت :
والتاسيح والثياتل والأ
يَلْ شَيِّ الرِّيمُ واليعفورُ

وكذا ورد في المخطوطة : « واليعفور » :
والصواب النصب في كل كلمات البيت
على هذه الصورة :

والتاسيح والثياتل والأ
يَلْ شَيِّ الرِّيمُ واليعفورُ

كما في الحيوان ٧ : ٢٠٩ وديوان أمية
بن أبي الصلت ٣٤ وفيه « والرئم والعصفورا »
وهي رواية . وقبل البيت في الحيوان
والديوان :

خلق النخل مُعْصِرَاتٍ تراها
تعصف اليابسات والمخضورا

٨٩٨ - (ثل) ٨٧ : ٢٥ وبيروت ٨٣
والمخطوطة كذلك ، في تفسير قول
الشاعر :

فطارت بالجدود بنو نزارٍ
فُسَدْنَاهُمْ وَأَثْقَلْتُ الْمِضَارُ

جاء في التفسير بعده : « والمضار :
جمع مَضَر . والصواب « مَضَر » كما
في مجالس ثعلب ٥٢٩ وهو اسم القبيلة
المعروفة : وفي مجالس ثعلب : « جمع
مَضَر مِضَار » والشاعر هنا هو القطامي ،
كما ورد في حواشي مجالس ثعلب . وانظر
ديوان القطامي ٨٦ :

٨٩٩ - (ثلل) ٩٦ : ١١ وبيروت ٩١
قال يصف برذوناً :

* مِثْلٌ عَلَى آرِيهِ الرُّوثُ مِثْلٌ *
وجاء في المخطوطة : « مِثْلٌ » بتخفيف
اللام مضبوطة بالضمة ، مع ضبط الميم
بالضمة أيضاً . والصواب « مِثْلٌ » بكسر
الميم وتخفيف اللام . وفي القاموس :
« والفرس يمثّل بالضم : راث ، فهو مِثْلٌ »
وفي اللسان (انثل) : « ونثل الفرس
ينثل فهو مِثْلٌ : راث » . وأنشد البيت
بتمامه :

ثَقِيلٌ عَلَى مَنْ سَاسَهُ غَيْرَ أَنَّهُ
مِثْلٌ عَلَى آرِيهِ الرُّوثُ مِثْلٌ

٩٠٠ - (جآل) ١٠١ : ١٣ وبيروت ٩٦
والمخطوطة أيضاً قول الراجز :
* وَشَارَكَتْ مِنْكَ بِشَأْوٍ جِيئَالَةً *
ولا وجه للشأو هنا ، فإن معانيه -
محصورة في السبق ، وفي الترا ب المستخرج
من البئر . وصوابه : « بِشَلَوُ » . والشَّلَوُ ،
بالكسر : العضو من أعضاء البدن . دعا
عليه أَنْ تَأْكُلَهُ الضَّبْعُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَوْ قَتْلَهُ .
وقبل الشطر :

إِيْنَكَ إِذْ رَهْنَتْ آلَ مَوَالَةٍ
حَزُّوا بِنَصْلِ السَّيْفِ عِنْدَ السَّبَلَةِ

٩٠١ - (جبيل) ١٠٢ : ١١ وبيروت
٩٧ : « وَأَجْبِلُ الْحَافِرَ : انْتَهَى إِلَى جَبَلٍ ،
وَأَجْبِلُ الْقَوْمَ ، إِذَا حَفَرُوا فَبَلَغُوا الْمَكَانَ
الضُّلْبَ ، قَالَ الْأَعَشَى :

وَطَالَ السَّنَامُ عَلَى جَبَلَةٍ
كَخَلْقَاءَ مِنْ هَضْبَاتِ الْحَضْنِ »

والصواب « عَلَى جَبَلَةٍ » بفتح الجيم
كما في المخطوطة ، والبيت في صفة ناقة :
والجبلّة ، بالفتح : الناقة العظيمة السنّام ،
كما يقال للسنّام نفسه جَبَلَةٌ ، كما في
المقاييس . وفي القاموس أَنَّ الْجَبَلَةَ بالضم :
السنّام ويفتح . فهذه لغة أخرى . أما كسر
الجيم فخطأ لم يرد في المخطوطة ولا في
المعاجم .

ثم إن وضع ابن منظور للشاهد هذا
الموضع لا وجه له ، كما هو ظاهر :

٩٠٢ - (جبيل) ١٠٢ : ١٨ وبيروت
٩٧ والمخطوطة أيضاً : قول * مدوس
بن ضباب :

إِنِّي إِلَى كُلِّ أَيْسَارٍ وَبَادِيَةٍ
أَدْعُو حَبِيشاً كَمَا تُدْعَى ابْنَةُ الْجَبَلِ

ولا وجه للبادية هنا ، إنما هي « ونادية »
بالنون والهاء ، كما في نوادر أبي زيد

١٤٢ وسط اللآلى ٦٦٣ . والأيسار : جمع
يَسَر ، بالتحريك . وهم القوم الذين
يتياسرون ، أى يتقاسرون على الجزور
لاقتسامها . انظر الميسروالأزلام من
تأليف كاتبه ٣٠ . يقول : إنه يشارك
فى الميسر لتتاح له فرصة إطعام الفقير ،
كما أن النادبات الحزينات على موتاهن
يحتجن إلى عونه . أى إذا ندبت امرأة
مبتها دعوت لها هذا الرجل فيجيبني فى
سرعة للأخذ بالشار ، كما يجيب الصدى
الصوت سرعة . وابنة الجبل ، هى صدى
الصوت الذى يُجيبك من الجبال والصحراء .

٩٠٣ - (جلد) ١١٠ : ٢٤ وبيروت
١٠٥ قول أبى ذؤيب :

فهن كعقبان الشريح جوانح
وهم فوقها مستلثمو خلق الجدل

وجاء فى المخطوطة « الشريح » ،
ووجه الرواية فيهما جميعاً : « الشريف »
بالفاء فى آخره مع ضم الشين ، كما فى
ديوان الهذليين ١ : ٣٨ وشرح السكرى
٩٢ : ١ وهو الموضع الذى تنسب إليه
العقبان . وفى معجم البلدان : « الشريف :
تصغير شرف ، وهو الموضع العالى ، ماء

لبنى نُمير ، وتنسب إليه العقبان » .
وأنشد لطفي الغنوى :

تبیت لعقبان الشريف رجاله
إذا مانوا لإحداث أمرٍ معطّب

٩٠٤ - (جلد) ١٢٣ : ١٥ وبيروت
١١٦ : « وفى حديث أم صبيّة كنّا نكون
فى المسجد نسوة قد تجاللىن ، أى كبرن » .
ووردت « صبيّة » فى المخطوطة بكسر
الصاد أيضاً مع إهمال نقط الباء وتشديد
الياء قبل الهاء . والصواب إن شاء الله
« صُبيّة » بهيئة التصغير ، كما فى الإصابة
رقم ٣٧٤ من قسم النساء . واسمها خولة
بنت قيس . وانظر كنى النساء فى الإصابة
رقم ١٢٤٧ .

٩٠٥ - (جلد) ١٣٠ : ٨ قول ذى
الرمة :

أيا ظبية الوغماء بين جلاجل
وبين النقى آأنت أم أم سائم
وفى « النقى » خطأ ظاهر فى الضبط
كما أن هناك خطأ فى الكتابة ، فإن
« النقا » مما يرسم بالألف لا بالياء ،
لأنها من مادة واوية . وقد جاءت على
الصواب فى بيروت ١٢٣ والمخطوطة .

٩٠٦- (حبل) ١٥٠ : ٢ وببيروت
 ١٤١ « السَّمُرُ شبه اللُّوبياء ، وهو الغُلْفُ
 من الطلح ، والسَّنْفُ من المرخ . وإنما
 هو « الغُلْفُ » بالعين المهملة ، وهو وعاء
 ثمر الطلح ، كما أنَّ السَّنْفَ وعاء ثمر
 المرخ . ولا تعرف اللغة « الغُلْفُ » بالغين
 المعجمة .

٩٠٧- (حبل) ١٥٠ : ٥-٦ وببيروت
 ١٤١ والمخطوطة : « حبال : اسم رجل
 من أصحاب طليحة بن خويلد ، أصابه
 المسلمون في الردة فقال فيه :

فإن تلك أذوادُ أصبَنَ ونِسوةُ

فلن تذهبوا فرغاً بقتلِ حبالٍ
 والقول بأنه من أصحاب طليحة فيه
 تجوز ، فإنه هو ابن طليحة كما في الإصابة
 ١٩٤٠ . وجاء في تفسير أبي حيان ٧ : ١٠٧
 أنه أخو طليحة ، والصواب أنه ابنه
 لا أخوه . وفي الإصابة أن طليحة قال
 لأصحابه وقد أصابهم عطش : « اركبوا
 حبالاً ، أي اسلكوا طريقه » . وحبال :
 ابنه كما في جمهرة ابن دريد ٣ : ٢١٠
 كذلك .

٩٠٨- (حبل) ١٦٣ : ٩ وببيروت
 ١٥٤ : « البلح قبل أن يشتدَّ وتظهر

تفاريقه » والصواب « تفاريقه »
 بالثاء المثناة كما في المخطوطة . والشُّفْرُق
 كعصفور : قمع البسرة والتمرّة .

وكذلك وردت في السطر العاشر « من
 تفاريقه » بالثاء المثناة في المطبوعتين
 والمخطوطة ، فلتصحح بالثاء المثناة .

٩٠٩- (حلل) ١٧٩ : ٢ وببيروت
 ١٦٨ والمخطوطة أيضاً قول عبدة بن
 الطبيب :

تُخْفِي التراب بأظلاف ثمانية

في أربع مسهنٍ الأرض تحليل
 والبيت في صفة ثور شبه الشاعر به
 ناقته . والصواب « يخفي التراب »
 بالياء المفتوحة لا التاء المضمومة ، وبالحاء
 لا الحاء المهملة ، كما في المفضليات
 ١٤٠ . فكما يقال خَفَى الشيء
 يخفيه خَفِيًّا : كتمه وستره ، يقال أيضاً
 خَفاه بمعنى أظهره واستخرجه ، فهو من
 الأضداد . والمراد هنا أن هذا الثور
 يستخرج التراب من الأرض بشدة عذوه
 ونحوه قول امرئ القيس :

خفاهنَّ من أنفاقهنَّ كأنما

خفاهنَّ ودقَّ من سحاب مركب

٩١٠ - (حلال) ١٨٤ : ٨ وببيروت

١٧٣ قول ليلي الأنيالية :

لنا تملكٌ دون السماء وأصله

مقيمٌ طووال الدهر لن يتحلحلا

وينبغي أن تضبط طاء « طووال »

بالفتح ، بمعنى طول الدهر . ولم يضبط

في المخطوطة من حروف الكلمة إلا الواو .

ضبطت بالفتح . وأما الطووال بالضم

فمعناه الطويل ، فإذا أفرط في طوله قالوا

طووال بتشديد الواو .

٩١١ - (حلال) ١٨٤ : ٢٥ وببيروت

١٧٤ : « يقال للناقة إذا زجرتها حلٌ

جزمٌ ، وحلٌ منونٌ ، وحلٌ جزمٌ لاحتيت » .

وفي المخطوطة : « وحلٌ » الفتح على

الحاء فقط . وصواب ضبط اللام فيها

بالكسر كما في ١٨٥ : ٢ وكما ورد في

(حوب) ص ٣٣٠ س ٣ .

٩١٢ - (حمل) ١٩١ : ٢١ وببيروت

١٨٠ والمخطوطة أيضاً قول الجعدي :

كليباني حسن مامسه

وأفسانين فؤاد محتمل

وهكذا ورد صدر البيت محرفاً مشوها

، وصوابه « كليباً من حس ماء مسه » كما

في إحدى روايتي البيت في المعاني الكبير

لابن قتيبة ١٢ قال : « ويروى من حسن

ماء مسه » . وفسره بقوله : « أي لما

وجد مس العرق أخذه شبيهه بالجنون من

شدة العدو » . وهذه هي الرواية التي

تنسجم مع تصحيح البيت . أما الرواية

الأخرى فهي في الديوان ٨٩ والحيوان

٢ : ٨ والمعاني الكبير ١١٣٣ وهي : « كلبا

من حس ما قد مسه » . والأولى أوفق

بهذا الموضع .

١٩٣ - (دخل) ٢٢٨ : ٢١ وببيروت

٢٤١ والمخطوطة : ومن كلامهم :

تسرى الفتيان كالنخل

وما يدريك بالدخل

وصوابه الرواية « ما الدخل » كما في

البيان ١ : ٢٢٠ وشرح الحماسة للمرزوقي

٩٢٤ وأمثال الميداني ١ : ١٢٣ واللسان

(حجا ١٨٠) مع نسبة الشعر في اللسان

إلى ابنة الخس . والصواب أيضاً أن أول

من قال هذا المثل هو عثمة بنت مطرود

الرجالية ، كما قال المفضل بن سلمة في

الفاخر ١٥٦ ، وأن ابنة الخس ضمننت

شعرها هذا البيت وقالت قبله :

قالت قسالة أختي

وحجواها لها عقل

وتعني بأختها هذه « عشمة بنت
مطروود » صاحبة المثل . وبعد بيت ابنة
الخنس كما في البيان :

وكلُّ في الهوى ليثٌ
وفيما نابيه فصل
وليس الشأن في الوصل
ولكن أن يُرى الفصل

٩١٤ - (ذال) ٢٧٠ : ١٤ وبيروت
٢٤٥ : « والذالان : مشى سريع خفيف
في ميس . والصواب إسكان الياء في
« ميس » ، يقال ماس يميس ميساً
وميساناً : تبختر واختال .

٩١٥ - (رعل) ٣٠٦ : ١٨ وبيروت
٢٨٨ والمخطوطة : « قال الفند الزماني ،
واسمه سهل بن شيبان » ، والصواب
« سهل » بالشين المعجمة كما في الاشتقاق
٣٤٤ وجمهرة ابن حزم ٣٠٩ والخزانة
٥٩ : ٢ بولاق و ٣ : ٤٣٤ هارون . قال
البخداي : « وسهل بالشين . وليس في
العرب سهل بالمعجمة إلا هو وسهل بن
أنمار من قبيلة بجيلة » . ولم يكن البكري
موفقاً في زعمه في اللآي ٥٧٩ أن ليس
في العرب سهل بشين معجمة غير سهل

بن شيبان ، إذ وضح أن هناك سهل بن
أنمار . أما اشتقاق سهل فقد ورد
اللسان (سهل) : « ولا يقال رجل
سهل كهل ولا يوصف به ، إلا أن ابن
دريد حكى : رجل سهل كهل » .

٩١٦ - (رقل) ٣١٢ : ١١ وبيروت
٢٩٣ : أ. « وروى أبو عبيد عن أصحابه :
الإنقال والإجنام والإجمار : سرعة مير
الإبل » . وفي المخطوطة : « والإحمار »
بالحاء والراء المهملتين ، وليس لأية
واحد منهما وجه ، فإنه لم يرد من جمز
إلا الثلاثي ؛ يقال جمز الإنسان والبعير
والدابة يجمز جمزاً وجمزى ؛ وهو عدو
دون الحضر الشديد ، كما أن الإحمار
بالمهملتين لا وجه له ، وصوابهما جميعاً
« الإجمار » بالجيم والراء المهملة كما في
التهذيب ٩ : ٨٦ . وفي اللسان (جمز) ٢١٨ :
وأجمر الرجل والبعير : أسرع وعدا .
ولا تقل أجمز بالزاي . قال ليدي :

وإذا حرّكت غرزي أجمرت
أو قرابي عدوّ جَوٍّ قد أبل
٩١٧ - (سبل) ٣٤٤ : ١ وبيروت
٣٢٣ والمخطوطة : « الشعر لجهم بن
شبل » وفي المخطوطة : « شبل » بدون

ضبط ، وإنما هو « سبَل » بالسین المهملة ،
كما يدل عليه الرجز الذي أنشدَه ، وهو :

أنا الجواد بنُ الجوادِ بنِ سبَل
إن ديمُوا جادَ وإن جادوا وبلُ

٩١٨ - (سحبيل ٣٥٢ : ٢٣) وبيروت
٣٣١ : « قال جعفر بن علبة الحرثي » ،
وإنما هو « الحارثي » كما هو واضح في
المخطوطة . وهو من شعراء الحماسة ،
انظر له المرزوقي ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٣٥٦
والخزانة ٤ : ٣٢٢ بولاق . وهو شاعر
مختصر من شعراء الدولتين .

٩١٩ - (سرل ٣٥٦ : ٣) وبيروت
٣٣٤ قول ابن مقبل :

أتى دونها ذبُّ السريادِ كأنَّه
فتلى فارسى في سراويلِ راحِ

ولم تضبط « سراويل راح » في
المخطوطة . والصواب في إنشاده « في
سراويل راح » بالرفع في « راح »
لا بالإضافة ، فإن البيت من قصيدة له
مضمومة الروى في ديوانه ، مطلعها :

دعنا بكهف من كُنابين دعوة
على عجل ، دهماً ، والركب رائح

والبيت المستشهد به من شواهد -
الخزافة : ١١١ وابن يعيش ١ : ٦٤
والمقاييس ٢ : والمقال ٢ : ١٦٤

٩٢٠ - (سندك ٣٧٠ : ٢٥) وبيروت
٣٤٨ : « والسندل : طائر يأكل البيش
عن الحائط » . وفي المخطوطة « عن
الحايط » ولا دخل للحائط بالبيش ،
ولا علاقة بينهما . فإن البيش نبت
يكون ببلاد الهند ، وهو نبت سام ،
يموت من تناول منه . والصواب « عن
الجاحظ » ، أى إن هذا القول مأثور عن
الجاحظ . ومن الحق أن الجاحظ قد ذكره
السندل في الحيوان ٦ : ٤٣٤ كما ذكره
بلفظ « السمندل » في ٢ : ١١١ / ٥ : ٣٠٩
ولكنه مع هذا لم يذكر أنه يأكل البيش
بل ذكر أنه يسقط في النار فلا يحترق
ريشه . وقال في ٥ : ٣٠٩ : « وفأرة -
البيش : دويبة تغتذى السموم فلا تضرها .
والبيش سم . وحكمه حكم الطائر الذي
يقال له سمندل ، فإنه يسقط في النار
فلا يحترق ريشه » . فهو يشبهه بفأرة
البيش في أن لكل منهما أعجوبة خاصة ،
لا أنهما اشتركا في أعجوبة أكل البيش .

٩٢١ - (شعل) ٣٧٨ : ٩ - ١٠ وببيروت
 ٣٥٥ والمخطوطة : « والإطنابة أمه ، وهى
 امرأة من بنى كنانة بن القيس بن جسر
 ابن قضاة » . وليس فى قبائلهم « القيس
 ابن جسر » ، وإنما هم « القين » بالنون .
 وهو القين بن جسر بن شيع الله بن أسد
 ابن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران
 ابن الحافى بن قضاة . جدهرة أنساب
 العرب لابن حزم ٤٥٤ والاشتقاق ،
 وحواشيه ٥٤٢ . وقالوا : إنما سعى النابغة
 الديبائى نابغة لقوله (الديوان ٢٥٦ -
 واللسان نبخ) :

وحلت فى بنى القين بن جسر
 وقد نبغت لنا منهم شئون
 ٩٢٢ - (شمل) ٣٩٤ : ١٥ قول امرئ
 القيس :

كأنى بفتحاء الجناحين لقبة
 دفوف من العقبان طأطأت بهالى
 صوابه « الجناحين » كما فى
 المخطوطة وببيروت ٣٧١ والديوان ٣٨
 واللسان (فتح) .

٩٢٣ - (طفل) ٤٢٨ : ١٩ وببيروت
 ٤٠٣ والمخطوطة أيضاً قول لبید :
 * وعلى الأرض غيابات الطفل *

والصواب « غيايات » بياغين كما
 فى ديوان لبید ١٨٩ واللسان (غيا ٣٨١)
 حيث ورد على الصواب . والغياية ،
 بياغين : ظل الشمس بالغداة والعشى .

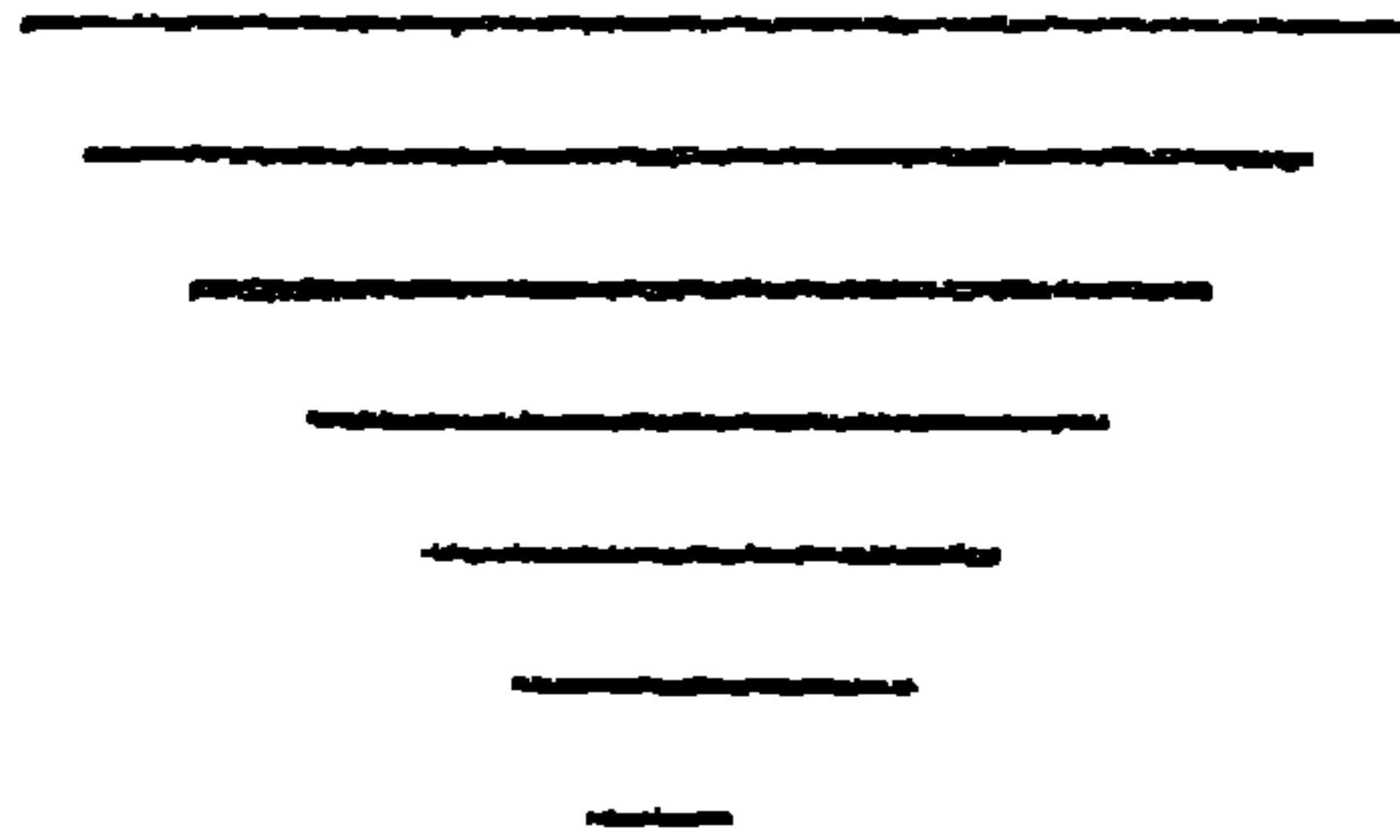
٩٢٤ - (طول) ٤٤٠ : ١٨ وببيروت
 ٤١٤ : « ولم يحل منه بطائل لا يتكلم
 به إلا فى الجحد » . والصواب « ولم
 يحل » مضارع حل ، كما فى اللسان
 (حلا ٢٠٩) وفيه : « قال ابن برى :
 وقولهم : لم يحل بطائل ، أى لم يظفر
 ولم يستفد منها كبير فائدة ، لا يتكلم
 به إلا مع الجحد . وما حليت بطائل
 لا يستعمل إلا فى النفى » .

٩٢٥ - (عصل) ٤٧٥ : ٢٥ وببيروت
 ٤٤٩ والمخطوطة كذلك : قال لبید :

فرميت القوم رشقا صائبا
 لسن بالعُصل ولا بالمقتعل
 والصواب « ليس بالعُصل » كما فى
 ديوان لبید ١٩٤ لأنه صفة للرشق ، وهو
 بالكسر : رمى السهام الكثيرة دفعة
 واحدة . قال أبو زبيد الطائى :

كل يوم ترميه مشها برشق
 فمصيب أو صاف غير بعيد

- ٩٢٦ - (عقل) ٤٨٩ : ٢١ وببيروت به تُرْعَفُ الألفُ إذا أرسلتُ
 ٤٦٢ والمخطوطة ، قول يزيد بن الصعق : غداة الصبح إذا النقع ثارا
- ٩٢٧ - (عقل) ٥٠٩ : ٢٤ وببيروت أساورُ بيض الدارعين وأبتغى
 عقل المئين في الصاع وفي الدهر
- ٤٨١ والمخطوطة كذلك : « قال ابن الزبير الأسدي . وهذا الشاعر هو « عبد الله بن الزبير » بفتح الزاي ، كما في الخزانة ١ : ٣٤٤ بولاق و ٢ : ٢٦٤ من نشرتي ، حيث ورد ضبطه ونسبه وترجمته . وهو من شعراء الدولة الأموية .
- عبد السلام هارون
 عضو المجمع
- وردت « الصبياع » كذا مبهملة النقط وبالعين في آخرها . والصواب « في الصباح » كما في التهذيب ١ : ٢٤٠ ويراد بالصباح الغارة صباحا . ويسوم الصباح هو يوم الغارة ، كما في اللسان (صباح) . وأنشد للأعشى في ذلك :



فن الكتابة في الأدب العربي

للدكتورة نعمات احمد فؤاد

حين

يدور الحديث عن
الإسلام تقول كتب
الدين والتاريخ معاً :

إن الهجرة من مكة إلى المدينة هي نقطة التحول في المرحلة الأولى . ولكني أقول : إن نقطة التحول باديء ذي بدء هي القراءة أي العلم فالآية الكريمة (اقرأ باسم ربك الذي خلق) هي الخط المميز بين محمد الإنسان ومحمد الرسول وهي مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة الإسلامية وتأتي الآية الكريمة (ن . والقلم وما يسطرون) فتعززها .

غالية السطور قد تفوق الجواهر حين تصاغ منها الكتب المنزلة ، والوصايا المرسلة والحكم الخالدة .

غالية الكتابة حل واحد . فحين تعتلج في صدر الإنسان مشكلة ، ينفذها على السطر ، وإذا يكتنحها تتحدد هي ، ويتخفف هو .

وينتشر الإسلام في الأرض وتصير له دولة وصولة وحضارة وفن فإذا بالخط العربي جدول من نهر الفن الإسلامي يمج مثلثه ويسيل حلوة : إن من يتأمل الحروف الهجائية العربية يجدها عبارة عن ألف متحركة تميل وتتقوس وتستقيم .

في "الكتابة العربية تسمع موسيقى الشكل . حقاً تأثر الخط العربي الكوفي بالصين دون أن يقلد . وبهذا تحولت العطايا الصينية إلى هدايا إسلامية .

وعظم الإسلام العلم والتسطير ونزل كتابه بياناً رائعاً وفائقاً . . . باهراً وفاخراً ، فانبت الخط العربي من هذا النبع الروحاني فجوده أصحابه ، وقدموه إضافة حضارية إلى تراث الإنسان .

ولم يقتصر الخط العربي على حروف مرسومة عاطلة ، أو منقوطة ، بل غدا غاية ووسيلة حتى ليقول الإمام علي (الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً) . وقد فصل القلقشندي الحديث عن هندسة الحروف العربية في الجزء الثاني من صبح الأعشى .

وصارت له أصول وقواعد ونسق وهيئة تتغير وتتطور ما بين تحرير وتحوير : وينبلج على الصفحة كالنية الحسنة ، أو يغمض كالرمز ، ويستخفي كالسر . . . وهو في الحالين يغترف من نبع صاف يقف وراء المسلم كاتباً وراسماً ومصوراً ، آيات ثم قرآنه

إلهامات وإشراقات تضيء جوانب نفسه وتنعم
إحساسه فيجود بالفن ويجيد .

ودخل الخط العربي في الفن الإسلامي حتى
صار أحد معالمه. وبلغ من أمره أن قال النقاد
الفنيون في مؤتمر الفن الإسلامي الذي عقد
بلندن سنة ١٩٧٦ في شبه إجماع : إن الفن
الإسلامي على اختلاف أوطانه متشابه، وعزوا
هذا التشابه إلى الخط العربي .

الفن الإسلامي يشد بعضه إلى بعض رباط
بلا شك : فما الذي يربطه ؟

في رأي أن العنصر الرائع الذي يربط عطاءات
الفن الإسلامي في أوطان عدة إنما هو الفكر
الإسلامي ثم نجى الكتابة العربية فتستوعبه .

وهنا أنتقل بالحديث من الشكل إلى الموضوع :

إن فن الكتابة هو فن الفكر والدوق معاً .

فن الفكر : بما يضمنها الكاتب من معان ،
وفن الدوق بما يخلع عليها الكاتب من حلاه
ورؤاه .

والتقاء المعنى بالأسلوب في الكتابة لون
من (العلاقات الفاضلة) .

وهنا تصبح الكتابة عطاء نفس ، وحكمة
روح من يوثها فقد أوتي خيراً كثيراً ، ولعل
القلقشندي كان يعني هذا حين قال : (إن
الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم
من المكاسب سواها) .

إن كتاب صبح الأعشى جمع أطرافاً
من المعارف على طريقته في التصنيف

والتأليف في عصره ولكنه قام أصلاً من أجل
التعريف بالكتابة والكتاب حتى استمد اسمه منها
فهو (صبح الأعشى في لم كتابه الإنشا) .

واعزاز قومنا بالكتابة ، عز حضاري

يجب أن تلتفت التربية إليه في عصر يفاضل
في إصرار بين (العلمي) و (الأدبي) كأن
المعرفة الإنسانية تتفاضل أو كأن علوم الوسائل
تعارض مع علوم الفن والتصوير والتعبير .

لقد كان من قومنا من يقول : (الكتابة
أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ، إليها ينتهي
الفضل ، وعندها تقف الرغبة) .

على أن الكتابة في رأي بل ورأيهم أيضاً
خير وأبقى من الخلافة حتى قالوا : كفى
بالكتابة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم
الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه .
ومن ثم صار السلطان الذي هو رئيس الناس
ومستخدم أرباب كل صناعة ومصرفهم على
أغراضه، يفتخر بأن تكون فضيلته حاصلة له
مع ترفعه عن التلبس بصناعة من الصنائع
الحسنة ، وأنفته أن يقع اسم من أسائها عليه .
وأن كل ملك وسلطان يؤثر أن يكون له حظ
من بلاغة العبارة وجودة الخط ، وفي ذلك
ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبة وأعلاها
درجة .

العتبي وحده هو الذي رأى ، وشايه
المأمون ، (الأمية في رسول الله صلى الله
عليه وسلم . : فضيلة ، وفي غيره نقيصة ، لأن

الله تعالى لم يعلمه الكتابة يتمكن الإنسان بها من
الحيلة في تأليف الكلام ، واستنباط المعاني
فيتوسل الكفار إلى أن يقولوا اقتدر بها على
ما جاء به) .

يا أيها الأُمي حسبك رتبة

في العلم أن دانت بك العلم
والتأمل في التاريخ الإسلامي يجد أن الخلفاء
الراشدين كانوا كتاباً للرسول وأن مؤسس
الدولة الأموية وغير واحد من خلفائه
كانوا كتاباً .

ووجوه الدولة العباسية وفي مقدمتهم جعفر
ابن يحيى بن خالد كانوا كاتبين .

والأدب العربي المولع بالحدل والمفاضلات
والترجيحات ، فيه صفحات في ترجيح النثر
على الشعر ، وبالطبع في تفضيل الشعر على
النثر . ومن طرائفه أوصاف للكاتب تجعل منه
(جنتلماناً) فالمهذب بن ممتي في كتابه
(قوانين الدواوين) يرى أن (يكون الكاتب
أديباً ، حاد الذهن ، قوى النفس ، حاضر
الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له
جرأة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ،
وفيه تودة يقف بها فيما لا يظهر له على حد
الرؤية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ،
كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة مؤدب الخدام) .

ويضيف محمد بن ابراهيم الشيباني إلى هذه
الصفات ، ملاحاة الزى ، وعطر الرائحة ،
ورفاهة المركب ، والوسامة والرشاقة . وفي
رأيه أن الكاتب (لا يكون فضفاض الجثة ،

متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم
الهامة فانهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق
بصاحبها الذكاء والفطنة) . ؟ ؟
وهي رقة حس تحسب لهم ؟

ولكن أعذب وصف عندى للكتاب قول
شاعرهم :

وشمول كأنما اعتصروها
من معاني . شمالك الكتاب

كان (كاتب الرسائل) أنخص الخاصة
عند الملوك فهو موضع المشورة وهو مستودع
السر . وأهم من هذا أنه (يؤمره في مشكرك
رأيه حتى يتنقح ، ويراجعه في مهم تدبيره
حتى يتضح) .

وهذه الصفة الأخيرة حلم الصحافة في
الحرية ، وحلم الشعوب في الديمقراطية .

وفي الدولة الفاطمية كان الكتاب (أول
أرباب الإقطاعات في الكسوة ، والرسوم
والملاطفات ولاسيبل أن يدخل إلى ديوانه
أحد ، ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص ،
وله حاجب من الأمراء الشيوخ ، وله
في مجلسه المرتبة العظيمة والخاد والمسند
والدواة العظيمة الشأن ، ويحمل دواته
أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره
إلى مجلس الخلافة) .

وحين أخذ حكام المسلمين ، بعد الخلفاء
الراشدين ، سمت الملوك ومظاهر الممالك

والدول ، خلعوا على الكاتب ألقابا فهو عند
الأمويين (الكاتب) كما يقول القفاص ،
وهو بدرجة وزير عند العباسيين - كم
من أدباء العصر الحديث يتحسرون الآن -
وهو في الدولة الفاطمية (كاتب الدست)
كما يقول ابن الطوير ، وهو عند المماليك
كاتب السر فإذا شاء العامة أن يستبدلوا
الميم بالباء ، فهو كاتب السر .

وهو بين هذا وذاك صاحب الديوان
بل صاحب القلم .

وهذا الوصف الكريم بالطبع لمن له فن
الخلق في الكتابة .

أما ماعدا هذا فلدونه بكثير .

والكاتب الخالق في رأي أكبر أيضا
من الصورة التي رسمها ابن قتيبة وأبو هلال
العسكري في الصناعتين . وقد يكون ابن
الأثير أقرب إلى وصفه منهما .

ولكن أن يكون الكاتب موسوعيا ، في
رأيهم ، غير من أن يكون الكاتب دعيا
كما حدث بعد تقدم الطباعة وتعدد الصحف .

ومما اشترطوا علم الكاتب به ، (مناطق
به العجم على وفق لغة العرب لعدم وجوده
في لغتهم) صبح الأعشى ج ١ ص ١٥٨ .
وهو اعتراف من الأسلاف بالتعريب
وبما في طبيعة اللغات الحية من الأخذ
والعطاء

بل اشترطوا علم الكاتب بما تلحن فيه
العامة وتغيره عن موضعه . وقد تكفل ابن
قتيبة بلحن أهل المشرق في (أدب الكاتب)
كما تكفل ابن مكي التونسي بلحن أهل
المغرب في كتابه (تثقيف اللسان)

ومن فطنهم أن استحبوا للكاتب معرفة
اللغات الأجنبية .

وقد أوجبوا ضرورة المعرفة بعلوم
المعاني والبيان والبديع ووجه احتياج الكاتب
إلى ذلك من سلوك سبل الفصاحة ، واقتفاء
سنن البلاغة وطول ترديد النظر في المنظوم
والمنثور ، ورياضة القلم على الإنشاء للانطباع
والصقل : إلخ ما ذكره أبو هلال العسكري .

ومن الطريف أن الشيخ بهاء الدين السبكي
رأى في (شرح تلخيص المفتاح) أن أهل
مصر لا يحتاجون إلى هذه العلوم وأنهم يدرونها
بالطبع ، (بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق
السلام ، والفهم المستقيم ، والأذهان التي
هي أرق من النسيم ، والطف من ماء
الحياة في ألحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك
الحلاوة . وأشار إليهم بأصابعه فظهرت
عليهم هذه الطلاوة فهم يدركون بطباعهم
ما أفنت فيه العلماء ، فضلا عن الأغمار ، الأعمار
ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من
الأسرار خلف الأستار .

والسيف ما لم يلف فيه صيقل

من طبعه لم يتنفع بصقال

ومصر بالحس الحضارى لها فى الفنون أسلوب يمت إلى أصالتها فى الذوق ، ومنهج يمت إلى عراقتها فى المعرفة . وقد غلب أسلوبها كشخصيتها حتى إن الفارابى عندما دخل مصر ومعه كتابه (المدينة الفاضلة) سأله المصريون أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة .

وبمناسبة الحديث عن علوم المعانى والبيان والبديع ، يحق لنا القول أن مصر كانت لها مدرسة بلاغية أدبية تقابل مدرسة المشرق البلاغية الكلامية . ومدرسة مصر ، فضلا عن المسامحة ، آثار فى المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر ، نقدا عليه مسحة من التهكم ، مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسهم الازى والتفتازانى ؟

كانت مصر فى تصنيفها البلاغة تستبعد بروحها الفنية ، الفلسفة الكلامية ، استبعادا فيه بغض لها حتى لىسمى رجلنا السبكى هذا الاستبعاد ، تطهيرا

وعمل مصر فى البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) يتميز بنفرتها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاهها عمليا ؟

كما تتميز بالموضوعية فى البحث ، والتعمق والمقارنة ، والربط ، والتحقيق والتصحيح ، والاستنتاج ، واللمح ،

والأناقة الحضارية ، والبلاغة ، والرهافة ، والذوق الشاعرى وما يملك من رفيف وتفويف والدقة وسعة الأفق ، والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عسر ولا تزمتم مما يغلب على كتب البلاغة الشرقية فى ذلك العصر .

هذه مصر فى البلاغة وهى فى (علم البديع) أبدع . فقد وصل المشاركة وعلى رأسهم السكاكى إلى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت مصر على يد ابن أبى الإصبع إلى بضع وعشرين فوق المائة منها عشرون من ابتكارها بشهادة النقاد فى ذلك العصر مع ما فى هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعية بين النظراء ، وإلا فلماذا لم يلتفت غيرها إلى عشرات الأنواع التى لمحتها مصر بالذكاء والتوقد والبراعة ولطف الحس ؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نفذت إليه مصر بالذوق الحضارى :

النزاهة : نزاهة الهجاء عن الفحش .
والتدبيج : وهو فن التعبير عن المعانى بالألوان .

والتصرف : وهو اللعب بالكلام فى براعة وغضارة وغندرة

والتهكم والتندر : ومصر بخفة الظل لانتجارى فيه ؟

وطبيعى أن تهتدى مصر إلى هذه الألوان بوحى من طبيعتها ، وبمدد من ماضيها ، ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين أذاعت فى

الأدب العربي شعره ونثره فن التورية .
ولأحسب غير مصر قادرا على التورية
بكل هذا الظرف والرقعة اللذين أشاعهما
ابن نباتة في بيتيه وقد أهدى إليه صديق
تمرا رديثا :

أرسلت تمرا بل نوى فقبلته
بيد الوداد فما عليك عتاب

وإذا تباعدت الجسوم فودنا
باق ونحن على (النوى) أحباب

ولأريد أن أسترسل في الحديث عن دور
مصر في البلاغة حتى لا يشغلنا عن الموضوع الأصلي.
وفن الكتابة لمن وهبها تعين عليه
العربية فهي كما قلت غنية بشاعريتها
وبألفاظها وموسيقيتها وحساسيتها المفرطة
في التفريق بين الحروف حين تعبر ، ومدها
الصوت بالألف والواو والياء حين تلين ،
وتوليفها الهاء والسين حين تهمس .. العربية
القادرة على اللعب بحروف قليلة تقدم فيها
وتؤخر فيختلف المعنى اختلافا واسعا
وبارعا فن الفاء والياء ومعهما الحاء
مرة والراء مرة والزاي مرة والشين مرة ،
نستطيع اللغة العربية أن تعطي هذه الأصوات
والمعاني :

حفيف الشجر

وزفيف الريح

ورفيف الورد

وشفيف النفس

ورفيف المشاعر في كل صورة من هؤلاء.

ولكن هل الكتابة بالعربية تعد لها ،
المدرسة أو تعين عليها الكتب . أو يستمبأها
القراء ، أو تحتفى بها الحياة .

هل العربية تتغلغل في شعور أهلها
وتعيش معهم أفراحهم ومسراتهم تعبر
عنهم وتغدو جزءا لا ينفصل من أيامهم ..
يحبونها حبهم لأنفسهم لأنها بضعة من النفس ؟

محرومة اللغة العربية من هذا الحنان والولاء .
وفي هذا الجو لا يجيدها متعلم ولا هو يرغب
في إجادتها ... ويجد المتصبر لها عزوفا
وعتا يملؤه حسرة وحرجا فيغدو بتمسكه
بها كالقابض على الحجر ، ثم لا يطول
احتماله للتضحية فيتخفف من وعده الشخصى
لها غير المكتوب وغير المطاوب ، إذ بذله
من تلقاء نفسه حسبة واحتسابا .. والحب
لا يعيش على الاحسان أو الامتنان بل ينمو
على الحنان الواصل ، والشوق المتجدد
والاقتناع الواثق والوثيق .

نتحدث عن فن الكتابة في الأدب العربي
واللغة العربية اليوم تعيش في مجتمعتها في
غربة نفسية ، تلقى الزهد من القريب ، والإعراض
من الحبيب ، والمنافسة من الغريب ، والمنافسة
من الدخيل ، والمخاربة من العدو .. كان
لها الله .

لقد قلت وكتبت أكثر من مرة أن
العربية الفصحى لكي تصبح لغة كتابة
لا بد أن تعمل لهذا ، بمواجهة مشكلتها
مواجهة أمينة وشجاعة ، فإن العلاج إن لم يكن

جندريا قفل الجرح على نغل ، ولتم على
فساد ، ونم على تفريط وتوريط الطبيب .

لابد من علاج جندري سهل اللغة
ويبسط ، ويحبب ويؤلف القلوب قبل الكتب
لتجد اللغة العربية من يقبل عليها ، ويقرؤها
ويتحدثها ، ويتذوقها ، وبفخر بها :
لن يجدى شيئا على العربية الخطب المنبرية
والصاقها بالدين للتخويف والارهاب فإذا
بالبعد يزيد بعدا وإبعادا واستبعادا لأن الحب
لا يصدر به أمر من السلطان ، وحاشا أن
يُصدر به أمرا ، القرآن .

ما الحل لكى تصبح العربية لغة كتابة؟
للعربية الفصحى ثلاث أزمات :
— أزمته الذاتية من جراء نحوها وصرفها
في المقدمة :

— أزمته الداخلية مع العامية (العائشة) المتجددة
المتباعدة التي تسيل عدوبة من طول
مأثرعها النيل ودللها أهلها . ومن التدليل ،
الدكر المتصل ، والتحدث الدائم ،
والتنعيم والتنعيم ؟

— أزمته الخارجية مع اللغات الأخرى
وأصحابها .

أصحابها من أهلها ، وأهلنا .
أزمته الذاتية يكفى فيها على سبيل المثال
(الفعل فى النحو العربى) .

الفعل فى اللغة العربية أفعال عادية وأفعال
القلوب وهذه تنقسم الى أفعال اليقين ،
وأفعال الرجحان .

وهناك أفعال التصيير والتحويل :
وهناك أفعال مستثناة من كل هذا أى
جامدة لا تتصرف ، فالفعل تعلم من أفعال
اليقين (ملازم لصيغة الأمر) .

والفعل هب من أفعال الرجحان (ملازم
لصيغة الأمر) أيضا .

والفعل وهب من أفعال التصيير
(ملازم لصيغة الماضى) :

وفى اللغة العربية ، الأفعال النواسخ وهى
ثلاثة عشر فعلا : كان وأخواتها مثل : أمسى
أصبح — صار ... الخ .

و (صار) ، هذا وردت أفعال أخرى
بمعناه عددها عشرة أفعال : (أمن — رجع —
عاد — استحال — قعد — حار — ارتد — تحول
عدا — راح ...) :

هذه الأفعال تصير ناسخة إذا ورد
استعمالها بمعنى الفعل — (صار) . وهناك
حالة استثنائية لأخت من أخوات (كان)
أو أخ وهو الفعل (عسى) فهذا الفعل لديه
القدرة على الحركة أو تزييف نسبه بالدخول
فى أسرة أخرى أى ؛ أنه يمكنه أن يكون
من أخوات (إن) بدلا من أخوات كان .
كيف كان ذلك ؟

بسيطة .. إذا اتصلت به ياء المتكلم
أو كاف الخطاب أو هاء الغائب ، فى
فى هذه الساعة ، ينصب الفعل (عسى)
الاسم الأول ويرفع الثانى !

أى نصب ؟

وهناك أفعال ناسخة ناقصة تماثل كان وأخواتها . وناقصة يقصد بها النحويون أنها لا تكتمل بالاسم المرفوع بعدها . ويختص خبرها بطريقة متفردة يأتي عليها وهي أن يكون جملة فعلية ، فعلها مضارع ، رافعا لضمير الاسم السابق ، مقترنا بأن أو مجردا منها .

وهناك طبعاً أفعال المقاربة ! وأفعال الرجاء ، وأفعال الشروع . وأسماء الأفعال . والأفعال الماضية التي تيجي على صورة الأمر في أسلوب (التعجب) .

والفعل في النحو العربي له تلميحات أو متاهات أخرى :

فهو أولا صحيح ومعتل :

والصحيح ينقسم بدوره إلى :

سالم - مهموز - مضعف .

والمعتل كذلك :

مثال - أجوف - ناقص .

الفعل المعتل حين يسند ، يعمل ، فالنحويون يحتمون أن تحذف واؤه من الأمر والمضارع المكسور العين ، وأن تبقى واؤه مع الأمر والمضارع المفتوح العين والمضموم العين :

أما الأجوف منه فيحذف حرف العلة مع ضمائر الرفع المتحركة ويبقى حرف حرف العلة ، ضمائر الرفع الساكنة .

نأتى للناقص : يحذف حرف العلة مع واو الجماعة وياء المخاطبة ويبقى حرف العلة مع ألف الاثنين ونون النسوة . وليست الأفعال وحدها التي تتمتع في اللغة العربية بهذه المتاهات . إن الميم والألف أى (ما) لا يخطر في بال جن أن (ما) في اللغة العربية لها هذه التخريجات والتفنيحات فهي : اسم موصول ، واسم استفهام ، واسم شرط ، ونكرة موصوفة و (ما) للتعجب . و (ما) للنفي .

و (ما) هذه تكون : كافة ، وتكون زائدة ، وتكون مصدرية ظرفية وتكون مصدرية غير ظرفية ، وتكون مهيئة أى تدخل على كلمة غير شرطية فتجعلها شرطية ..

و (ما) تكون مغيرة أى العكس فتدخل على أداة شرطية فتجعلها غير شرطية .. و (ما) تقع صفة للتحقير ، أو للتفخيم ، أو للنوعية .

أما حين تصحب الميم الكاف فتلك «فزورة» أخرى . ففي اللغة العربية (كم) تكون مرة عديدة ومرة استفهامية ومرة خبرية : وتعرب مرة مبتدأ مبنية على السكون في محل رفع . ومرة خبرا إن كانت استفهامية .. وتميز هامة ظرف زمان منصوب : ومرة (في الخبرية) مفرد أو جمع مجرور .

حتى الحرف المفرد لديه القدرة على اللعب بناءً فالنون مرة تكون نون النسوة ، ومرة تكون للتوكيد . ونون التوكيد بدور هامة تكون ثقيلة

ومرة تكون خفيفة .. ربما بعد أن خفت
عقول 'كثيرين بسببها' . والله أعلم .
وهذا جزء بسيط من مادة (الفعل)
في النحو العربي ..

أما أزمته الداخلية مع العامية التي استأثرت
بونها بالبيت : والحديقة والمصنع والمتجر
والسوق والمسرح والسينما فظلت تثرى
بالمفردات الجديدة والعبارات الطبيعية
والاصطلاحات الطريفة واللمحات الذكية
والإبتسامات والضحكات .. فهي شباب
على طول .

حتى حين تتكلم العامية بالعربية فهي
تفعل هذا باختيار حين تختار من ألفاظها
ما يعجبها فيكون الإعجاب علامة في الوقت
نفسه على الإعراض عن المتروك والمهمل
بل تفصح العامية عن هذا الرأي حين تمسح
الفصح (بالحلمتيشي) وتفحم القافات
في نخب، والظاءات في نهريها الجارى في
كاريكاتيرية، مداعبة أو ملاحية .

وكان مصر حين عرب عبد الملك
الدواوين سنة ٨٧ هـ تبسم وتقول «بناقص
الدواوين» ، واصططعت لنفسها لغة تمنحها
مع القلب، المنزل والمجلس، والسوق والنهار والليل .
ومضى الشعب يسجل عواطفه وتجاربهم وأيامه بلغته
العامية .. بلغته الشعبية. وتجمعت له في الأربعة
عشر قرنا ثروة تنضم إلى ثرواته السابقة في
فن القول .. والفصحى تنظر وتتململ في
قيودها التي أثقلوها بها وهم يحسبون أنها حلي
لها يحسبون أنها عليها، ميزة وامتياز فإذا بها أغلال

تعوقها عن مسامرة الزمن فلا تروق ولا تشوق
في العصر التركي ، ولا تسعف ولا تطرف
في عصر التكنولوجيا. فلم يك بد من
نفخ ماعليها ، وماعلاها ، لتنتلق في
في التعبير ، وتستوعب الحديد، وتجد
في الترجمة ، وتقلد بادي الأمر ثم تبتكر
وتسهم في حضارة العصر بالتعبير والتسجيل
والتحصيل أيضا فبعض الكليات العلمية
تتخذها وسيلة للتعليم إلى جانب لغات العلم
الحاضرة .

وحين حصرت العامية الفصحى في
الرسميات، وحاصرتها فلم تتغلغل في حياة
كل يوم ، حرمتها النماء والتفتح والازدهار
والطواعيس والتفاسل والتجارب .
حرمتها أن تكون سجلا ورباطا ومستودعا
للحياة المصرية خلال بضعة عشر قرنا ،
وكانها أيام ضائعة منها وضائعة عليها ؟

تعيش العامية على سجيها في الأخذ والعطاء
من اللغات الأخرى وتعين الناس على الحياة
بما تسعفهم به من مسمياتها ، وعلى وجه
السرعة ، (عايشة) .

إن اللغة كائن حي ، يموت إذا توقف
عن النمو والحركة وتنفس الهواء
الخارجي وتمثل الغذاء الخارجي ، فإن لم يموت
عاش سقيا هزيلا لا يقوى على منازلة
الخصوم ، أو رد الهجوم، أو تسيد موقف.

وشبيه بهذه الحال العربية حين ترهق
بالقيود وتصاب بالجمود ، وتتوقف عن

النماء بنزلة. اعن لغات الحياة. ناسين أن كتابها الأكبر وفخرها الأعظم استعمل كلمات مثل (إستبرق) وهي لفظة فارسية !

وبعد : فأين الحل ؟

نراجع العربية في عملية تنقية- وتخلية

في محاولة تجديد شبابها باستبعاد البالي من صيغها وجلاليد الصخر المعهودة . ثم اصطفاء الرائق الجميل من صورها وعباراتها وما أكثره.

نحاول التقريب بينها وبين العامية فليست العامية لغة أخرى أو أجنبية ، إنها العربية المصرية .

فما خف وشف ، مع الصيحة اللغوية في اللغتين نأخذه ، ونشيعه في الكتابة والحديث حتى تسهل مهمة المدرسة ومهمة الفصحى فلا ينظر إليها الشراء على أنها علم مدرسي للامتحان ولكن على أنها لغة حياتهم في البيت والمدرسة على السواء .

تسهيل اللغة بقصر النحو على ما يصح

به التعبير دون الدخول بالطلاب في متاهات القواعد واستثناءاتها ، وتسهيل اللغة بقصر المتن على السائع الشائع .. وتخفيفها من المترادفات وتعدد الأسماء للسيف والأسد وغيرهما . فهذا البحر من الكلام لا يخدم غير أصحاب البحور وحروف الروى .

عدم فصل النحو بل تعليمه مع النص

الجميل كجزء منه يضبط إيقاعه في محاولة إساجة الإعراب . فإذا أخطأ الطالب بعد هذا

فلا تكبر من خطئه الإعرابي أو نعلن صعوبة النحو ، بل نحاول الإتيان بشبيه من اللغات الأخرى التي تدرس له في محاولة إقناع بأن اللغات كلها لها نحوها الذي يضبط الكتابة والنطق . . ونضيف إلى هذا في عملية تخيير أن كل جهد مبذول طيبة تعلم الحديق وثمن الوصول إلى مرتبة الخاصة الذين يعرفون الصواب إذا تكلموا أو كتبوا .

الترقق في تعليم الإعراب والاقتصار بادي الأمر على الحركات الأساسية والأصلية مع التبسيط وتنحية التفريعات والتخرجات والاستثناءات حتى لا تشوش الطلاب وحتى لا تثقلهم ونثقل عليهم .

تعميم الضبط حتى يتعود القارئ القراءة الصحيحة بطول المران وطول المدة .

غربة التراث مع إحاطة مبصرة بالظروف الاجتماعية والسياسية والعلمية التي أحاطت بأصحابه وأثرت فيهم وبالتالي شكلت ، من خلاصهم هذا التراث .

غربة التراث مع تقدير واع لفروق

الدوق النفسى والاجتماعى بين الأمس واليوم فروق العادة والحلقيات والحلقيات المؤثرة ، فليس بلازم أولازب أن نوثمن على كل رأى . وليس بلازم أولازب أيضا أن نعارض لافتعال المعاصرة أو ادعاء التجديد فهناك أشياء كثيرة يلتقى عندها الإنسان في كل زمان ومكان . . وأشياء كثيرة تتأثر باختلاف الأوضاع والملاهيسات .

نكى تنطلق الفصحى أو ينطلق محبوا
والصادقون في إصلاحها يجب أن نفصل
بين أن القرآن الكريم نزل بها فهي في قدسه
متمدة لآتمس ، وبين أن الذين يتكلمون
بها بعد القرآن من بلاد مختلفة ومشارب
مختلفة ومستويات حضارية مختلفة. واللغة
على ألسنتهم تتبع هذا كله فهي
هنا، بعيدا عن القرآن، وسيلة حياة كسائر
الرسائل لأكثر، تخضع للتحوير والتغيير
والتطوير، وتخضع هذا بدوره للصواب والخطأ.^٢
وهذا طبيعي فلا داعي لأن يتصايح
قيم ويثور ويفور آخرون حفاظا على
القرآن .. إن الله نزل الذكر وإنه له
لحافظ . فليبدأ الأصدقاء والأعداء على
السواء..

القرآن بعيد بعيد .. ولكن اللغة - لغة الناس
لغة القرآن يجب أن تطوع نفسها للناس
أو يطرعها الناس لمتعضيات حياتهم في غير
حرج أو خوف .. إذا أريد لها الإصلاح
والتطور ثم النمو والازدهار .

في كل عصر يحس القائمون على اللغة
والقائمون بتعليمها حاجة أبناء جيلهم إلى
بعث جديد في اللغة. أحس هذه الحاجة المرصفي
بل أحسها الشيخ حمزة فتح الله وهو الذي
يتحدث الفصحى مع رجل الشارع .. أحس
هذه الحاجة حفني ناصف ، وأحسها لطفي
السيد كما أحسها في الأربعينيات الخولي ثم
أحسها محمود تيمور ويحيى حقى . كل
من زاوية وكل من منطلق خاص .

ولكنهم على اختلاف (وسائلهم) ومصادرهم
يلتقون في القلق وإحساس الصعوبة المعوقة.
وقد أضاف الأستاذ حمد حسن الزيات
إلى أسباب التنكر للبلاغة العربية : السرعة،
والصحافة ، والتطفل . وأنا أشير هنا إلى
كتابه القيم (دفاع عن البلاغة) الذي
عالج فن الكتابة من جميع وجوهه
رزواياه بالتفصيل والتحليل والتدليل من
واقع التاريخ الأدبي والواقع القولي والعلمي.
تحدث بعامه عن الإمتاع والإقناع ، واللغة
والطبيعة، والنفس والدوق، وتحدث بخاصة
عن الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة
اجل بكثير من الحمل البيانية أو المحسنات
البدعية .

وهنا عرض لتاريخ الأسلوب والصفات
القومية أو العامة التي تشكل أسلوب أدب
بمينة في جملته ، وتميزه عن أدب آخر حتى لا
لا يخفى الفرق أو الفروق العامة بين اللغات
الشرقية واللغات الغربية .

ومن رأى الأستاذ الزيات أن صفات
الأمة كما تؤثر في طبيعة اللغة، تؤثر طبيعة
اللغة في أسلوب الكاتب . فاللغات التي
اكتسبت من مدنية أهلها رقة اللفظ ، وأناقة
العبرة ، ومن شاعريتهم جمال الصور
وروعة الأخیلة، تغنى الكاتب بموسيقاها
وحلاها عن كد القرينة في ابتكار المعاني
واستنباط الفكر (ص ٥٨ . وسلك

في هذا النوع اللغة العربية. وهي في رأي كما قلت في مقدمتي لهذا الكتاب الجليل الذي أشرف بكتابتها له، ميزة وآفة معا، فالأدب العربي في جزء كبير منه حافل بالأصوات والأجراس ولكن المحصل الذهني منه قليل لقد تتالت عصور وقرون لا هم لها إلا تنضيد اللفظ، وترصيع العبارة، بل إلتخامها بضروب من المقابلات والتوريات والبديعيات المختلفة حتى غدا الأدب صناعة ثم تردى أكثر فانقلب شعوده حتى قرّ في النفوس كما يقول الأستاذ الزيات أن الأسلوب إنما يطلق على الجانب اللفظي من الكلام، وما دروا أن الأسلوب جهد موصول لإشاعة الحياة في اللفظ بيبث المعنى وتجسيمه. إنه عبارة عن (النظام والحركة المودعين في الأفكار).

وفن الكتابة في عصرنا أو فن البلاغة لا يتحقق في رأيه إلا من خلال صفات ثلاث جامعة هي :

(الأصالة والوجازة والتلاؤم) ،
الأصالة سمة الشخصية .

والإيجاز طبع وطبيعة العربية .
والتلاؤم فن الصياغة .

وصعوبة فن الصياغة تأتي من ضرورة مطابقة الأسلوب لحركات النفس، وصور الذهن، وسير العاطفة ودرجتها فيه من الإبطاء أو الإسراع. وهذه الحالات التي تصاحب الخلق الفني تحدد طريق الكاتب فيخرج الأسلوب موجزاً أو مرسلاً أو مستديراً منها أوله لآخره ، وبين هذا وذاك يأخذ المعنى دورته .

هذه لمحة من دورة فن الكتابة في الأدب .
العربي من القديم إلى الحديث، هي على تشعب الآراء طواف ، وليست نهاية مطاف. فعند يأتي اليوم الذي تصبح فيه العربية ، بلحينا لغة كتابة ، أو للأجيال القادمة ، سيكسب الاستعمال الدائم والحميم ألواناً من فنون العرض والأداء ، والتشويق والنفاذ .
نتصير كتابتها فناً ، ويغدو فيها علماً
نه أصول جديدة وقواعد يثرى بها
حديث الكاتبين :

نعمات أحمد فؤاد

المُعَرَّب في العصر الحديث

للدكتور نيقولا دوبريشان

إِنَّ

قضية قبول أو عدم قبول الألفاظ المعربة تعد من القضايا التي اهتمت بها الدوائر اللغوية في العصر الحديث اهتماماً كبيراً، ويبدو أن الخوف من تكاثر الألفاظ الأجنبية التي لم تُحدد أصول وقواعد لاستخدامها بأي نوع من الأنواع مثل سبباً من الأسباب الأساسية لتأسيس المجامع اللغوية العربية، إن عملية التعريب هو استعارة المفرد لأجنبي، وهو المرحلة الأولى في تكييف اللفظ لأصول الكلمات العربية، ولكنه لا يمثل الاندماج الكامل في نظام اللغة العربية. والحق أن النحويين القدامى لم يضعوا تعريفاً واضحاً تمام الوضوح لهذا المصطلح، وأما التعريف الذي وضعه مجمع اللغة العربية في القاهرة فيختوى على

لبس^(١)، وكذلك القرار الخاص بالتعريب الذي وافق عليه المجمع في إحدى جلساته الأولى^(٢) : ثم طال الكلام عن هذا اللبس في السنوات التي تلت اتخاذ القرار الخاص بالتعريب. ونلاحظ من نص هذا القرار أن المجمع قد وضع من البداية عدداً من الحدود، لكنها كانت فيما بعد سبباً لمناقشات عديدة، وذلك لعدم وضوحها.

وعمل المجمع انطلاقاً من القرار الذي تمت الموافقة عليه، ولكن المحاولات المتطرفة الرامية إلى تبديل الكلمات الأجنبية التي دخلت في اللغة فيما مضى، وتكيفت بكلمات مأخوذة من اللغة العربية، لإغناء تراسها من المفردات عن طريق الاشتقاق، وإحياء الكلمات القديمة، ولكن هذه المحاولات قد باءت بالفشل^(٣).

(١) راجع حسين والي، العرب، محاضر جلسات مجمع اللغة العربية في القاهرة، ١٩٣٦، ص ٣١٠

(٢) راجع مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الثاني، ١٩٣٥، ص ٦، ومحاضر جلسات المجمع، ١٩٣٦، ص ٣٠٩

(٣) ونذكر هنا أنه قبل سنوات كثيرة بذلت جهود لإقامة مؤسسات لغوية كان هدفها الأساسي تنقية اللغة العربية من الألفاظ الأجنبية، ففي ١٨٩٢ أقيم توفيق البكري أول مؤسسة من هذا النوع (راجع عبد القادر المغربي بجامعنا اللغوية وأوضاعها في مجلة مجمع اللغة العربية، ١٩٥٢، ص ١٢٤). وكثير من المفردات التي اقترحتها لتبديل الألفاظ الأجنبية لم تستعمل وزالت، ومنها « مدره » الذي كان مقترحاً لتبديل « أفوكاتو » وبديلاً فيها بعد « الخاي » وفي حالات أخرى بقي المفرد المقترح إلى جانب مفردات أخرى تخصصت فيما بعد لنفس المعنى ومنها « النبرة » المقترحة لتبديل « النوميرو » والذي بقي إلى أيامنا إلى جانب العدد والرقم. وجرت عملية متشابهة بالنسبة إلى جهود مؤسسة لغوية أخرى أقامها في ١٩١٧ لطفى السيد وسليم البشري.

إن الدعوة إلى بحث الألفاظ العربية القديمة لإطلاقها على المستحدثات العلمية العصرية، وخاصة في علوم مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والعلوم التكنولوجية قد جاءت بالفشل كذلك .

لقد كان عبد القادر المغربي العلامة اللغوي المشهور يثبي في عام ١٩٣٨ إلى أن عبارة « عند الضرورة » من نص قرار المجمع هي نسبية جداً ، وفي نفس الوقت قابلة لأكثر من معنى ؛ وذلك لعدم دقتها . إنه كان يعنى بصورة خاصة عدداً من المفردات من اللغة الحارثية ، التي لم يكن باستطاعة اللغة الاستغناء عنها ، برغم أن هناك كلمات مقابلة أخرى وضعت في اللغة العربية الفصحى^(١) . لكن هذه الأخيرة إما أنها فشلت في فرض نفسها ، وإما أنها تعايشت مع الكلمات المستعارة . إنه يذكر مثلاً الأزواج التالية : « بريد وبوسطة » : « حوذى وعرجى » ، « ردهة وصالون » : « مضخة وطمبة » ، « فندق وأوتيل » وغيرها ، كما يذكر عدداً من الكلمات التي لم يجد أي مبرر لاستبدالها بكلمات عربية مقابلة ، مثل : « سينما » و « جرنال » و « غاز » و « بنك » و « فلم » و « كادر » إلخ ...^(٢) إن اقتراحه الخاص بقبولها

قد رفض برغم أن هناك عدداً من هذه الكلمات لا تزال تستعمل حتى في أيامنا ، وهي الوجيدة لهذه المعاني :

وهناك من اعتبر أن التحديد الذي تعنيه به عبارة « عند الضرورة » من نص قرار مجمع اللغة العربية . وهو القرار الوحيد الذي لا يزال يسرى مفعوله حتى الآن برغم الإضافات التي جاءت في السنوات التالية على النص الأصلي - هذا التحديد يتناول لهذه المستحدثات العصرية المصطلحات العلمية والتكنولوجية فقط ، ولا يعنى بمفردات لغة الأدب أو الكلمات الدارجة .

إن الاقتراح الخاص بالالتجاء إلى اللفظ الأجنبي حين لا توجد ألفاظ أو مصطلحات عربية لهذه المستحدثات العصرية المتلاحقة - إن هذا الاقتراح يبدو معقولاً ومبرراً . لكن الصعوبة التي تظهر هي أنه في حالة الالتجاء إلى كلمات أجنبية - وهذا بالنسبة لجميع اللغات - لا تتم استشارة الهيئات اللغوية ، ولا يتم الحصول على موافقتها . بل هي موضوعة أمام الأمر الواقع ، وتصبح مجبرة على تسجيل هذه الأمور . وإذا تم التعبير عن آراء متناقضة بشأن قبول اللفظ المستعار^(٣) في فترة أقدم ،

(١) عبد القادر المغربي ، حول قرار التعريب ، في مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الخامس ، ١٩٣٨ ،

فيبدو أن الباحثين العرب وافقوا على قبوله في فترة أقرب منا زمنياً ، واعترفوا بنفعه 'النسبة إلى اللغة . ولكن المواقف تختلف حين تطرح قضية اعتباره سماعياً أو قياسياً^(١) .

وقد اعتبر عبدالقادر المغربي في بداية ترننا هذا أن التعريب طريقة من طرق إغناء مفردات اللغة العربية ، وقدر أنه لا يمثل في أي حال من الأحوال خطراً بالنسبة إلى نفاذ اللغة العربية ، فهو يرى أن التغيرات التي تطرأ على اللغة من مرحلة إلى أخرى أمر طبيعي ، ولكن الشيء المهم هو ألا تسبب ضرراً للأسلوب^(٢) .

كما أكد نفس الفكرة عباس حسن الذي اعتبر أن اللفظ المعرب يمثل خطراً فقط في حالة استخدامه حين لا تحتاج اللغة إليه^(٣) .

ومن الباحثين من يرى في قبول اللفظ المعرب طريقاً لتسهيل الأمر أمام المختصين ، لفهم مختلف الأبحاث والدراسات ، حيث أن العديد من المصطلحات لها تداول دولي^(٤) . وفي هذا قال عباس حسن : « وفي التعريب فائدة قد تكون أجل فوائده ، هي إشاعة

المصطلحات العلمية والفنية بين الناطقين بالعربية ، وهي مصطلحات عامة عالمية ، تكاد تكون مشتركة بين العلماء والباحثين والمختصين في مختلف البلدان المتحضرة ، فمعرفة نصوصها تمكن الباحثين من معرفة مساهماتها الحقيقية معرفة دقيقة ، لا لبس فيها ولا إبهام ، فيتابعون ما يدونه الفنيون عنها ، وما يطرأ عليها في البلدان الأجنبية^(٥) . وهناك أسباب أخرى تجعل اللفظ المعرب مقبولاً ؛ وفي ذلك يقول أيضاً عباس حسن : « أما إضاعة الوقت وبذل الجهود المضنية في البحث عن كلمات عربية للكلمات الأجنبية أو لأكثرها فتلك طريقة مضنية ، بطيئة ، قاصية على اللغة^(٦) » ثم يشير الباحث إلى أن علماء الدين في عصرنا الحاضر يخالفون بعض الأحكام القديمة التي ارتضاها الأئمة السابقون ويستبدلون بها أخرى تلائم الحياة الحديثة ، ويوفقون بها بين أحكام الدين ومطالب الحياة ، إذ ليس الدين الإعنات ، وتكليف الناس مالا يطيقون ، وأخيراً يتساءل : « وإذا كان هذا هو الشأن في مسائلنا الدينية المقدسة أفلا نتبعه في مسائلنا اللغوية ؟ »^(٧) إن المحاولات الهادفة إلى

(١) صحيح أن مضمون هذين المصطلحين لم يبق جامداً ، بل تطور على مر السنين ، ولا حظنا أن كثيراً مما كان يعتبر سماعياً انتقل في العصر الحديث إلى القياسي . راجع كذلك : أحمد أمين ، مدرسة القياس في اللغة ، في مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء العاشر ، ١٩٥٠ ص ٩٥ - ١٠٤

(٢) عبد القادر المغربي ، كتاب الاشتقاق والتعريب ، القاهرة ، ١٩٠٨ ، ص ١٤٣ .

(٣) عاس حسن ، اللغة والنحويين القديم والحديث ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٤ .

(٤) مصطفى جواد ، مبحث في سلامة اللغة العربية ، في مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، العدد الثاني ، ١٩٥٢ ، ص الثاني ، ١٩٥٢ ، ص ٢١٠

(٥) عباس حسن ، الكتاب المذكور ، ص ٢٣٤ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٣٠

(٧) نفس المرجع - ، ص ٢٣١

بعث الألفاظ القديمة ، بأى ثمن ، من أجل استخدامها للتعبير عن وقائع العصر الحديث نعتبر أخطاء أو أخطاراً ؛ لأنه من الصعب التصور أن هذه الكلمات الخاصة بماض بدائي جداً تتناسب مع الواقع العلمى والصناعى بصرفنا الحديث (١) .

ومن ناحية أخرى يؤدى اللجوء للألفاظ العربية إلى نشوء المترادفات التى تسبب هى بدورها لبساً وإبهاماً (٢) . ومن الواضح أن تعدد الدلالات ضار بالمصطلحات العلمية الحديثة ، وقد لفت المستشرق « جب » النظر إلى ذلك ، وأكد ضرورة اللجوء إلى التعريب أو الاشتقاق ، بدلا من تضيق المعانى للألفاظ (٣) .

وفى حالة ظهور الألفاظ المعربة بجانب الألفاظ المشتقة من الطبيعى أن يكون اللفظ العربى مفضلاً على مثيله العربى .

وإذ ذلك ، عند اشتقاق ألفاظ عربية لمعان معينة يُفضل استخدامها بدلا من الألفاظ المعربة التى تصبح بذلك غير ضرورية وغير نافعة (٤) .

وهناك أمثلة كثيرة تؤيد هذا الرأى . ومن المعلوم أن هناك إمكانية التعايش

بين اللفظ الأجنبى الدخيل فى لغة واللفظ الصادر عن وسائل اللغة الخاصة ، كما يمكن كذلك ظهور اللفظ الناتج عن هذه الوسائل اللغوية بعد الالتجاء إلى اللفظ العربى .

وفى بعض الأحيان يهدف اللفظ المشتق من أول الأمر إلى تبديل اللفظ العربى . وهذا هو ما حدث على سبيل المثال فى حالتى الكلمة « قطار » والكلمة « سيارة » . ولما وصلت إلى العراق الآلة المسماة حالياً بـ « القطار » كانت اللغة الفرنسية أكثر اللغات انتشاراً فى الشرق الأوسط ، ونتيجة لذلك سميت هذه الآلة باللفظ « شمين دفير » (من العبارة الفرنسية Chemin de fer)

ثم جاء الإنجليز وسميت هذه الآلة باللفظ الإنجليزى « ريل واى » من الكلمة الإنجليزية Railway وباختصار « ريل » فقط . وفيما بعد سميت بالكلمة العربية لكلاسيكية « قطار » التى معناها فى اللغة القديمة « إيل يلى بعضها بعضاً على نسق واحد » . وقد استبعد أى احتمال للباس من البداية حيث أن الكلمة « قطار » كانت لا تستخدم فى اللغة الحديثة بمعنى آخر . وجرى تطور

(١) ، (٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٧

(٣) شاطر انعقاد الدور الأول لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٤٢٢

(٤) مصطفى جواد ، مبحث فى سلامة اللغة العربية ، مجلة المجمع العلمى العراق ، المجلد الثانى ، ١٩٥٢ ،

يشابه تطور هذه الكلمة في حالة الكلمة «سيارة» (١).

وقد ظهر في كل هذه الحالات لفظ معرب إلى جانب اللفظ الناتج عن الوسائل الداخلية للغة العربية. وجرت نفس الظاهرة في حالة كلمات أخرى مثل: «بنك» - مصرف» و «بوليس - شرطة» و «ديالكتيك - جدلية» إلخ... وفي بعض الأحيان نتج عن ذلك لبس وإبهام، وهذا ما حدث على سبيل المثال مع كلمة «استعمار» المستخدمة لمعنى كلمة «إمبريالية» والتي استخدمت لاحقاً لمعنى كلمة «كولونiale» ، ومن أجل تجنب هذا اللبس التجأت اللغة المعاصرة إلى مختلف الطرق، ولكن الميل السائد هو استخدام الكلمة «استعمار» لمعنى «الكولونiale» ، وقبول اللفظ المعرب «إمبريالية» ؛ وهناك الكثير من الأمثلة لمنتقاة من الصحف والكتب السياسية العربية تدل على هذا الميل :

«المعركة ضد الإمبريالية» و «معسكر الإمبريالية» و «الإمبريالية العصرية» إلخ .
ويبدو أنه في الآونة الأخيرة تنتشر الكلمة المعربة «كولونiale» كذلك، حيث نجدها في عبارات من النوع التالي : «الحكم الكولونiale» و «الإمبريالية ونظامها

الكولونiale» إلخ... ولكن الأمر الأكثر غرابة هو أن اللفظ المعرب يستعمل حتى لمعنى الكلمة الفرنسية (Neocolonialism) على الرغم من أن العبارة العربية «الاستعمار الجديد» لا يسبب أي لبس ، أي بالإضافة إلى «الاستعمار الجديد» نبقى «الحكم الكولونiale الجديد» أو «الحكم النيوكولونiale»

ومما تجدر الإشارة إليه أن نفس الازدواجية نلقاها في حالة الكلمة «فني» المستخدمة لمعنى الكلمة الفرنسية Technique ولمعنى الكلمة الفرنسية «Artistique» ، مع ملاحظة الميل إلى استعمال اللفظ المعرب «تكنيكي» لثاني معنى مذكور .

إن تسجيل اللفظ المعرب إلى جانب الكلمة العربية له دور تفسيري أحيانا وهذا ، القول يناسب العبارات التالية : «يحرم المجتمع القبلي من الديناميكية أو القوة الدافعة» و «يتميز بالديناميكية أو سرعة الحركة» ، إن القيمة التفسيرية للعبارة العربية التي تستعمل لمعنى الكلمة الأجنبية واضحة تمام الوضوح ، وخاصة أن الحرف «أو» تربط بينهما . ولكن في حالات أخرى لا تربط بين الكلمتين العربية والأجنبية حرف «أو» ويربط بينهما الحرف «و» :

(١) مصطفى جواد ، مبحث في سلامة اللغة العربية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، العدد الثاني ، ١٩٥٢ ، ص ٢٥٩ ، وأحمد الإسكندري ، أسماء عربية إسميات جديدة ، نواة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، العدد الأول ، ١٩٣٤ ، ص ١١١ - ١٣٤

« نشاطهم الهويشي والديماغوجي »
« وروح التعصب القبوي والشوفيني » ، « والنشاط
الفكري والأيدولوجي » إلخ .

هذا ، وقد وضع بعض الباحثين عددا
من الشروط لقبول اللفظ الأجنبي :
أولا : إمكانية الانتشار في اللغة العربية نتيجة
للدخوله في أحد الأوزان الجريية الاسمية أو
الفعلية ، وضرورة التعبير عن معنى لا يدل عليه
لفظ عربي .

ثانيا : مرونته بحيث يسمح الاشتقاق منه ،
مثله في ذلك مثل الكلمات العربية :

ثالثا : التعبير عن معنى محدد لا يعبر عنه
لفظ آخر . (١)

ويلاحظ مما سبق ان الشرط الأول يتعلق
بالتكيف الصرفي ، بينما يتعلق ثالثها بضرورة
الكلمة ، وقد أكد هذا العنصر قرار مجمع
اللغة العربية بالقاهرة :

وقد ذكرنا أن لأحد ينكر ضرورة
استعمال اللفظ المعرب . وقد عبر الباحث
العربي جرجي زيدان قبل سنوات كثيرة

عن ضرورته ، إذ قال : « وقد آن لنا أن
نخلص أقالمنا من قيود الجاهلية ، ونخرجها
من سجن اليداوة ، ... وإلا فلا نستطيع
البقاء في هذا الوسط الحديد . فلا ينبغي
لنا احتقار كل لفظ لم ينطق به أهل البادية
منذ بضعة عشر قرنا : لأن لغة البوادي
والخيام لاتصلح للمدن والقصور ، إلا إذا
ألبسناها لباس المدن ... إلخ (٢) ثم
يضيف مشيراً مباشرة إلى الأمر الذي نهتم
به : « وإذا عرض لنا تعبير أجنبي لم تستعمل
لعرب مايقوم مقامه لأبأس من اقتباسه » (٣)

ويجب الإشارة كذلك إلى أن بعض
الباحثة العرب ألحوا على ضرورة
تحديد أصول وضوابط لقبول اللفظ
الأجنبي ، وتحديد استخدامه للضرورات
لعملية فقط ، ولكنهم عنوا بهذه الضرورات :
لأعلام وأسماء المأكولات ، والمشروبات والأثاث
والأدوية وأسماء الحليوانات والأمراض غير
المعروفة لهم (٤)

(١) إسحاق موسى الحسيني ، ألفاظ معربة ، في البحوث والمحاضرات ، ١٩٦٣ - ١٩٦٤ ، ص ٤٥ .

(٢) جرجي زيدان ، اللغة العربية كائن حي ، دار الهلال ، ص ١٣٩

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(٤) عباس حسن ، الكتاب المذكور ، ص ٢٣٤ ومصطفى جواد ، مبحث في سلامة اللغة العربية ، في
مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٢ ، ص ٢٠٨ . راجع كذلك تفاصيل أخرى : أهم القرارات العلمية
في مجلات المجمع اللغوي بالقاهرة ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ٣٢ ، ١٩٥٧ ، ص ٥٨٠ ومصطفى الشهابي
انتيخالي الألفاظ المولدة وإقرار الصياح منها ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ٤٠ ، ١٩٦٥ ، ص ٧١٢ وإبراهيم
بيومي مذكور ، في اللغة والأدب ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٤٠

كذلك محاولات تنقية اللغة العربية من
الألفاظ المعربة لأن مثل هذه المبادرة من شأنها أن
تخلق فراغا (٢) في اللغة من الصعب ملؤه
بالكلمات العربية .

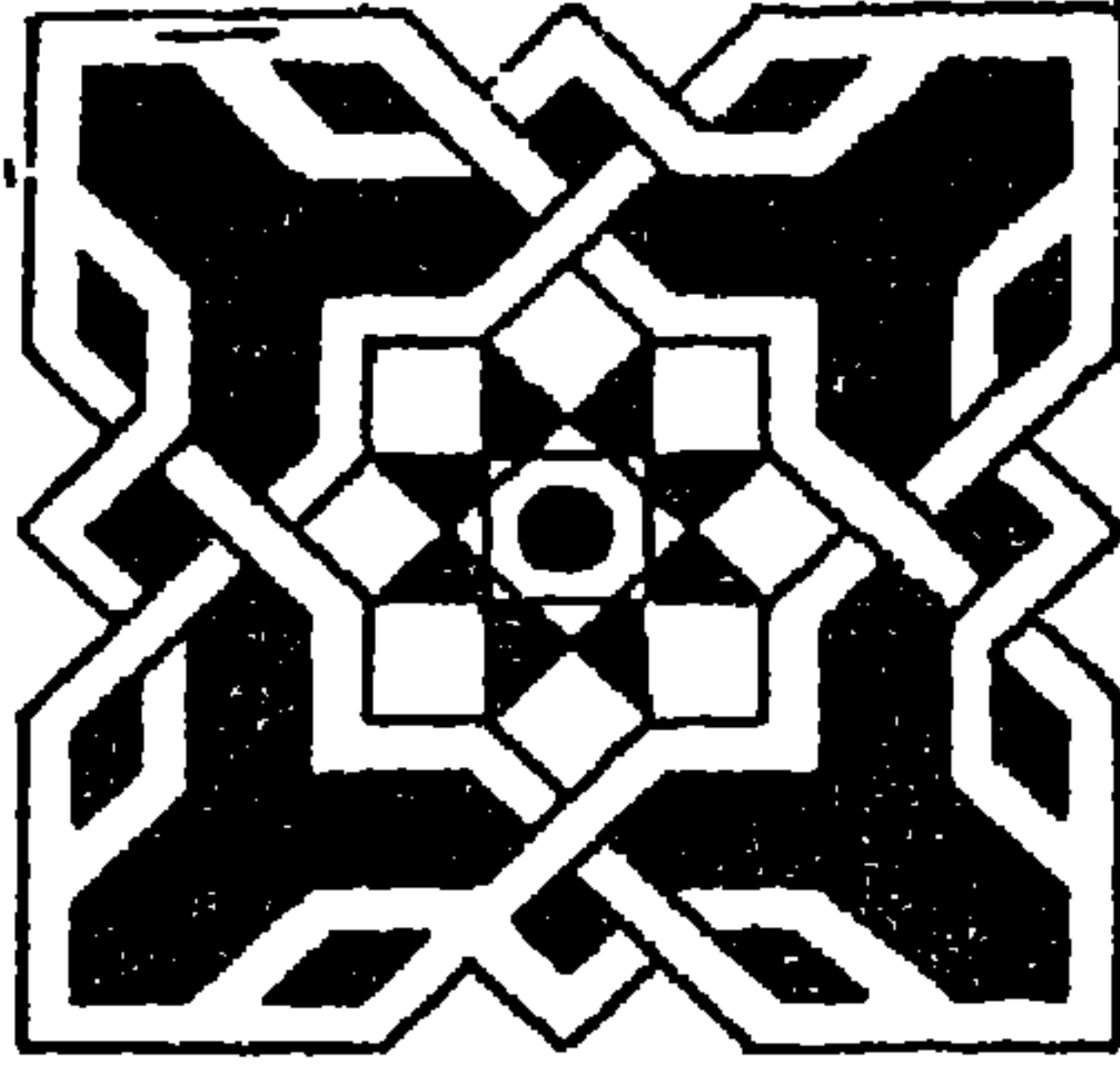
نيقولا دوبريشان

أستاذ قسم اللغات الشرقية .
جامعة بونخارست - رومانيا

ولكن أكثر الباحثين قد وافقوا على قبول
المصطلحات الجديدة بالترتيب التالي :

أولا الترجمة ، وثانيا الاشتقاق ، وثالثا
المجاز ، ورابعا التعريب .

ونستنتج من هذا أنه يجب الالتجاء
إلى التعريب في آخر الأمر فقط . أما
المبالغة في الالتجاء إلى اللفظ المعرب فيرفضها
الباحثون رفضا مبدئيا (١) باتا ، كما يرفضون



(١) إبراهيم بيومي مذكور ، في اللغة والأدب ، القاهرة ، ص ٤٠ ، وعبد القادر المغربي ، كتاب الاشتقاق
والتعريب ، ص ١٤٣ ومصطفى جواد ، مبحث في سلامة اللغة العربية ، مجلة المجتمع العلمي العراقي ، العدد الثاني ،
١٩٥٢ ، ص ٢١٠ الخ .

(٢) عبد القادر المغربي ، كتاب الاشتقاق والتعريب ، ص ١٤٣ وعباس العزاوي ، المعربات والمصطلحات
بجاء المجتمع العلمي العراقي ، ٨ ، ١٩٦١ ، ص ٤٨ الخ .

*

في القرآن والعربية :

(٥)

الصِّراع بين القُرَّاء والنُّحاة

للكبير أحمد محمد علي الدين الحنفي

ط : في الكمية (الحذف والزيادة) .

ثانيا : _____

١ - تسقط العرب الواو وهي واو الجماعة اكتفاء بالضممة قبلها فقالوا : في « ضربوا » قد ضرب ، وفي قالوا قد قال ، وأنشد للفراء :

إذا ما (شاء) ضرّوا من أرادوا
ولا يألوا لهم أحد ضرارا
كما أنشد الكسائي :

متى (تقول) دخلت من أهلها الدار
كانهم بجناحي طائر طاروا^(١)
فحذف الواو من (شاءوا) والواو من (تقولوا) .

وجاء في الخزائنة :

ولو أن الأطباء كانوا حولي
وكان مع الأطباء الأداة^(٢)

وورد في جمع الموامع :
« هلع إذا ما الناس (جاع) وأجدبوا »^(٣)
كما أن بعض العرب تحذف ياء التأنيث
اكتفاء بالكسرة ، ومنها قول عنزة :
إن العدو لهم إليك وسيلة
إن يأخذوك تكحلي وتخضب^(٤)
وقد عزا الفراء تلك الظاهرة إلى (هوازن
وقيس) - وهذا يؤيد ما ذهب إليه ،
فهو إذن من قيس وهي من القبائل الضخمة
التي سكنت في مواضع متعددة من نجد -
وقيس كانت تتناثر ديارها بين نجد والحجاز -
وأكثرها قبائل متبدية تميل إلى هذا الحذف
الذي قرره ، ويظهر أن هذا الحذف
كان يشمل مناطق بدوية أكثر مما ذكره
الفراء ، فسيبويه يرى أن هذا الحذف كان
عند ناس كثير من قيس وأسد^(٥) ، بل يظهر
أن مناطق شاسعة من قيس وأسد كانت
تحذف الواو والياء - وهما علامة المضممر

(١) معاني القرآن للفراء : ٩١ / ١

(٢) خزائنة الأدب للبغدادى : ٣٨٥ / ٢ وفي معاني القرآن للفراء : عنلى : بدل : حولي

(٣) الجمع : ٥٨ / ١ (٤) معاني القرآن للفراء : ٩١ / ١ ط دار الكتب .

(٥) الكتاب ٣٠١ / ٢ / ٣٠٢ (*) انظر الجزء السابق من مجلة الجمع .

ولاسيا في القافية ، ودليل ذلك أن سيويه
سمع منهم من ينشد :

(أ) طافت بأعلاقه خَوْدٌ يمانية
تدعو العرائن من بكر وما جمع

(ب) وقول عنتره :

(ز يادار عبلة بالجواء تكلم)^(١)

وأنشد السيرافي للخزر بن لوزان :

(ج) كذب العتيقُ وماء شين بارد
إن كنت بسائلي غيبوقا فاذهب^(٢)

وأصل الكلام في البيت الأول :
وما جمعوا ، والبيت الثاني : تكلمى - وهو
لعنتره ، وعنتره من عبس من ذبيان
التي ينتهي نسبها إلى قيس - تلك التي يشيع
فيها ظاهرة الحذف ، على أنه قد سمعت
نغمة أنجري ترى أن مثل هذا الحذف
الذي عزى إلى قيس وأسيد وهوازن - ليس
بلهجة وإنما هو ضرورة شعرية^(٣) ، وليكني
أردت سبر غورهم فوجدت الحق بجانبهم ،

لأنني عثرت على شواهد نثرية - لا يمكن أن
يقال بأنها جاءت ضرورة ، لأنه لا ضرورة
في النثر فمن ذلك :

(أ) قرأ بعض القراء «سندع الزبانية» ،
وقوله تعالى «ويدع الإنسان بالشر»^(٤) وأصلها
سندعو ، ويدعو - فحذفت الواو بقيت
الضمة دليلا عليها .

(ب) كما أورد صاحب الكشف في
سورة المؤمنين شاهدا لقراءة من قرأ «قد
أفلح المؤمنون» بضم الحاء اجتزاء بالضمة
عن الواو ، والأصل «أفلحوا المؤمنون»^(٥)
كما نقل ابن هشام في المغنى قراءة يحيى بن
يعمر قوله تعالى «تماما على الذي أحسن»
بالرفع وأصله «أحسنوا» فحذفت الواو
واجتزأ عنها بالضمة . كما قرأ ابن محيصن
«لمن أراد أن يتم الرضاعة»^(٦) والأصل أن
«يشموا» .

(ج) وحكى السيوطي قائلا «من العرب
من يقول «الزيدون قام»^(٧) .

(١) سيويه : ٣٠٢ / ٢

(٢) شرح السيرافي على سيويه : ٤٧٨ / ٥ .

(٣) خزانة الأدب : ٣٨٥ / ٢

(٤) معاني القرآن للقراء : ٩١ / ١ ، خزانة الأدب : ٣٨٥ / ٢ .

(٥) حاشية الصبان على الأشموني : ١١٢ / ١ .

(٦) مفتي اللبيب : ١٣٠ / ٢ ، خزانة الأدب : ٣٨٥ / ٢

(٧) المصباح : ٥٨٦ / ١

(د) ورد أن حذف الواو والاكتفاء عنها بالضممة ظاهرة سامية عامة وجدت في الحبشية والعبرية والآرامية^(١) .
فهذه أدلة قاطعة من قراءات القرآن الذي هو مرآة صافية للهجات العرب - يليه مثال من النثر ، ولا ضرورة في القرآن ولا في النثر - فهي لهجة لا ضرورة

٢ - ومن أمثلة الحذف ما رواه ابن منظور لأعرابي من بني نمر أنه قال ينحطّن من الجبل^(٢) وما عراه صاحب التصريح من قولهم : ظلت ومست وأحسنت وأنه لغة سليم^(٣) ولتفسير هذا الحذف نرى أن الفعل أصله : ظلمت ومنست وأحسنت . ويظهر أن القبائل العربية كانت تختلف في نطق مثل هذه الأفعال - فبعضها كان ينطقها تامة كاملة : مثل الصيغ السابقة ، وبعض كان ينطقها بحذف لامها مع نقل حركة العين إلى الفاء مثل : ظلمت . وبعض آخر كان يحذف لامها مع إبقاء الفاء على حركتها مثل : ظلمت وسيبويه كان يرى شذوذ هذه الصيغ المحذوفة^(٤) ومن ثم فلا يقاس عليها - وكلامه مردود ، لأنه متى ثبت أنها لهجة عربية -

فلا ضرر من أن يقاس عليها . والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء . قال^(٥) ابن جني «اللغات على اختلافها كلها حجة» على أن النحاة قيدوا هذا الحذف بأن يكون الفعل ثلاثيا مكسور العين^(٦) . وأرى أنه لا يلتفت إلى قولهم : لأن ظاهر إطلاق الموضح أن هذا الحذف مطرد في كل فعل مضارع أيضا ، بل حكى ابن الأنباري الحذف في المفتوح وسمع من العرب : همت في همت وكان صاحب التسهيل على حق حيث لم يشرط للحذف ما شرطه النحاة بل جعله شاملا للمفتوح والمكسور والثلاثي ومزيده^(٧) .

فالذي دعا بني نمر وبني سليم إلى الحذف ، أنهم يتجنّبون النطق بالحروف المتثاربة والمتماثلة ، لأن أعذب التأليف ما تباعدت حروفه وتباينت مخارجهم ، فلما اجتمعت الحروف المتماثلة في كلمة واخذت وتغلّدت الإدغام لسكون الثاني منهما حذفوا الحرف الأول فقالوا : ظلمت ، حظت ومست فتخلصت نمر وسليم من التكرار

No Ldâke. clie Endungen des Perselek p, 15 Strâssburg 1909

(١)

(٢) اللسان : ٣٩٤ / ٦

(٣) التصريح : ٣٩٧ / ٢ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) الاقتراح : ٢٤ ، ٧٨ والمزهر : ٥٧ / ١ .

(٦) ابن عقيل : ٤٥٧ / ٢ .

(٧) التصريح : ٣٩٧ / ٢

في: ظلت وحططت ، وليس أدل على كراهيتهم تكرار الحروف من أنهم أبدلوا من أحد المثلين ياء كما في : التظنى والتقصى والتسرى وأصلها التظن والتقصض والتسرر

والعلاقة واضحة بين القبيلتين اللتين أثرتا الحذف : قنمير - بطن من عامر بن صعصعة^(١)

تلك التي ينتهي نسبها إلى قيس عيلان ، وعامر كان بعض بطونها بدوا إذ كانوا ينزلون نجدا ، بل أثر عن بني عامر أنها تقول :

ظلت وملت^(٢) وعليها جاء قوله تعالى «فظلمت تفكهون»^(٣) وقوله تعالى «إلهك الذي ظلمت

عليه عاكفا»^(٤). وكذلك سليم وهي قبيلة

عظيمة تنتسب إلى سليم بن منصور بن

عكرمة وينتهي نسبها إلى قيس وكانت منازلهم

في عالية نجد^(٥)، ويظهر أن بعض بطونها كان

ينزل مع طي بدليل ما جاء عن الهمداني

من قوله «فن وادي القرى إلى خيبر إلى

شرقي المدينة إلى حد الحبلين إلى ما ينتهي

إلى الحرة - ديار سليم ، لا يخالطهم لإصرم من الأنصار سيارة، وقد يحالون^١ هذه القبائل الثلاث.

طيئا^(٦)، وإذا عرفنا أن طيئا قد آثرت مثل هذا الحذف في مثل تلك الأفعال التي وزدت محذوفة في نمير وسليم - لم يكن عجبا، جاء في الخصائص في باب تحريف الفعل : « من ذلك ما جاء من المضاعف مشبها بالمعتل وهو قولهم في ظلمت : ظلمت قال :

خلا أن العناق من المطايا أحسن به فهن إليه شوس^(٧)

والأصل أحسن - فحذف ، والبيت لأبي زيد الطائي^(٨).

كما جاء في مجالس ثعلب : عوى ثم نادى هل أحسستم قلا ثصا وُسِمن على الأفخاذ بالأمس أربعا^(٩)

والأصل : أحسستم . وهذا البيت لا يربى عاب الطائي وهو بدوي^(١٠)، ومن هنا يبدو أن طيئا شاركت سليما ونميرا في تلك السمة وقد بينت العلاقة التاريخية والجغرافية بين هذه القبائل الثلاث.

(١) معجم كجالة : ٣ / ١٩٥ .

(٢) دروس التصريف : ١٦٨ الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ط الرحمانية .

(٣) سورة الواقعة : ٦٥

(٤) سورة طه آية ٩٧ .

(٥) معجم كجالة : ٢ / ٥٤٣

(٦) صفة جزيرة العرب^١ الهمداني : ١٣١ ط ليدن .

(٧) الخصائص : ٢ / ٤٣٨ .

(٨) ابن يمين : ١ / ١٥٤ هامش .

(٩) مجالس ثعلب : ٢ / ٦٠٥

(١٠) خزائن الأدب : ٤ / ٥٨٤

٣ - نقل أبو حيان في تفسيره عن الزمخشري : أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء كثير في لغة هذيل ، وأنشد الطبري :
كفأك كفّ ما يليق درهما
جوداً وأخرى (تعط) بالسيف الدّم^(١)

ويرى الألوسي أن حذف الياء في مثل ما تقدم ضرورة، إذا لم يتقدم^(٢) عليها جازم حتى يحذفها ، ونحن هنا أمام موقف محير موقف القائلين بالضرورة، وموقف القائلين بأنها لهجة هذيل ، ولكني أرجح أنها لهجة هذيل وليست من الضرورة في شيء، والدليل على ذلك :

(أ) قرأ النحويان ونافع قوله تعالى «يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه»^(٣) «يأ - بإثبات الياء وصلًا وحذفها وقفًا ، وابن كثير بإثباتها وصلًا ووقفًا ، وهي ثابتة في مصحف أبي ، وقرأ باقي السبعة بحذفها وصلًا ووقفًا»^(٤).

(ب) ما جاء في الإتحاف من أن الياءات المتطرفة كقوله تعالى: الداع . والحوار ويأت ، والليل إذا يسر:، دعاني، أخرتني . أثبتها بعض القراء مراعيين اسم كيعقوب وهي لغة الحجازيين ، ومنهم من يحذف هذه الياء كخلف وهي لغة هذيل^(٥) .

(ج) ما جاء عن العرب من قولهم^(٦) : أقبل يضربه لا يأل . يحذف الواو والاكتفاء بالضمّة على اللام ، وقولهم «لا أدري»^(٧) يحذف الياء والاكتفاء بالكسرة على الراء ، وقولهم : ما أدري ما تقول^(٨) « وقولهم : لا أبال - يحذف الياء والاجتزاء بالكسرة : عن الياء»^(٩) .

(د) وردت بعض القراءات بحذف الياء والاكتفاء عنها بالكسرة كقوله تعالى «يوم ينادى المناد»^(١٠) وقوله «أتمدون بمال»^(١١) وأصلها : المنادى ، أتمدونني وقرأ ابن مسعود « الزانية والزان » بغير ياء : شواذ القرآن لابن خالويه : ص ١٠٠ وانظر سورة النور ٢ فإذا كان القرآن الكريم قد نطق بتلك اللهجة ، والقرآن ليس شعرا حتى نقول إنه حذف الياء وأبقى

(١) تفسير الطبري : ١٥ / ٤٧٩ ، البحر ٥ / ٢٦١ / ٢٦٢ .

(٢) الضرائر : ١٧٥ للألوسي

(٣) سورة هود آية ١٠٥

(٤) البحر المحيط : ٥ / ٢٦١ / ٢٦٢ .

(٥) الإتحاف : ١١٣ .

(٦) مقدمتان في علوم القرآن : مبانى : ١٢٨ .

(٧) اللسان : ١٨ / ١٤ .

(٨) تفسير الطبري ١٥ / ٤٧٩ ، والجاسوس : ٣٤٢ .

(٩) البحر ٥ / ٢٦١

(١٠) سورة ق . آية ٤١ .

(١١) سورة النمل آية ٣٦ .

(١٢) سورة النور آية ٢

الكسرة دليلاً عليها - ضرورة - ثم ما تقدم من كلام العرب النثرى والذي حدث فيه مثل هذا الحذف - والنثر لا يمكن أن يكون محطاً للضرورات .

ومن هنا نرى أن هذا الحذف في هذيل كما عزاه القراء على حين أن إثبات هذه ألياءات لهجة الحجازيين - ومعنى ذلك أن الحجاز كانت تنطق بالصيغة كاملة وافية لا حذف فيها ولا حيف - ولهذا أخالف الأستاذ (برجشتراس) حيث يرى أن الكسرة الممدودة الانتهاية كانت تقصر في لهجة الحجاز^(١)، ومما يؤيدني في الرأي قول صاحب الإتحاف في إثبات هذه الألياءات والإتيان بالصيغ الكاملة « ويعتقوب وغيره يثبتون الياء في الحاليين - (أي حالة الوصل والوقف على الأصل وهي لغة الحجاز^(٢)) .

والسبب في أن الحجازيين يأتون بالصيغ الكاملة تامة أنهم أهل حضر غالباً والحضري معنى بتحسين النطق وتخير العبارات حتى ينال ما يشتهي من طموح ومركز اجتماعي^(٣)؛ لهذا يعتمد إلى وضوح الكلام وحسن أدائه

كما يبدو أن ظاهرة الحذف في هذيل لم تكن مقصورة على الآخر . بل وجدت عندها أنماط شتى للحذف فقد تحذف حيناً عين الكلمة :

تقول هذيل : رادٌ : أي : رائد^(٤) وفي اللسان^(٥) : أن هذا الحذف كثير في لغتها ، ومن حذف العين في هذيل ماورد في قراءة ابن مسعود^(٦) « فقلاله قولاً ليسنا » بضم القاف من غير واو^(٧)

٤ - أنا - ضمير المتكلم :

حدث خلاف بين البصريين والكوفيين في تركيب هذا الضمير ، فيرى البصريون أن الضمير هو الهمزة والنون ، والألف الأخيرة زائدة أتت بها في الوقف لبيان الحركة فهي كالماء في أغزه وارهه - وإذا وصلت حذفها كما تحذف الهاء في الوصل^(٨) .

كما يؤيد ابن جنى رأى البصريين بقوله « فأما الألف في - أنا - في الوقف فزائدة وليست بأصل - ولم تنقص بذلك فيها من

(١) العلور النحوى : ٤٤ .

(٢) الإتحاف : ١١٣ .

(٣) في اللهجات العربية ٨٣ ، ٢ ط ٣ . دكتور إبراهيم أنيس (رحمه الله) .

(٤) الخصص ١٣ / ١٥٠ .

(٥) ١٦٩ - ٤

(٦) طه ٤٤ -

(٧) مختصر شواذ القرآن ١٥٥ لا بن خالويه ، وقارن بالخصائص ٢ / ١٣٢ .

(٨) ابن يمش : ٣ - ٩٣ .

قبل الاشتقاق ، هذا محال في الأسماء المضمرة لأنها مبنية كالحروف ، ولكن قضينا بزيادتها من حيث كان الوصل يزيلها ويذهبها كما يذهب الهاء التي تلحق لبيان الحركة في الوقف ألا ترى أنك تقول في الوصل : أنا زيد كما قال تعالى «إني أنا ربك»^(١) يكتب في الوقف بألف بعد النون وليست الألف في اللفظ وإنما كتبت على الوقف ، فصار سقوط الألف في الوصل كسقوط الهاء التي تلحق الوقف لبيان الحركة في الوصل^(٢) ، ويقرر ابن يعيش زيادة الألف في أنا - وهو مذهب البصريين^(٣)

وأما علماء الكوفة فيرون أن الألف بعد النون من نفس الكلمة ، أي الأحرف الثلاثة كلها وهي التي يتألف منها الضمير (أنا) يقول ابن يعيش « وقد كثر ذلك عنهم حتى قال الكوفيون إنها (أي الألف) من الكلمة وليست زائدة^(٤) .

- أما اللهجات العربية في هذا الضمير فهي :
(أ) إثباتها (أي الألف الأخيرة) وصلًا ووقفًا - وهي لغة تميم ، قال أبو النجم :
(أنا أبو النجم وشعري شعري^(٥))

وجاءت رواية في كل من الأشموني^(٦) والجاسوس على القاموس^(٧) مؤداها عزو تلك اللهجة إلى تميم ، وجاء في الخزائن قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفوني
حميدا قد تدريت السناما^(٨)

ويميل ابن جني إلى جعل هذين البيتين من قبيل الضرورة إذ يقول « وقد أجرت العرب كثيرا من ألفاظها في الوصل على حد ما تكون عليه في الوقف ، وأكثر ما يجي ذلك ضرورة في الشعر^(٩) ، وكأنه بذلك ينكر أن تكون (أنا) بالألف في حالة الوصل - إلا في الضرائر الشعرية ، ولكن يقف في سبيله ما جاء في قراءات القرآن الكريم ، إذ قرأ نافع « أنا أحيي وأميت^(١٠) »

(١) سورة طه الآية ١٢ .

(٢) المنصف لابن جني على كتاب التصريف لأبي عثمان المازني : ١ / ٩ ط الأولى .

(٣) ابن يعيش : ٩ / ٨٤ .

(٤) المرجع السابق ٩ / ٨٤ .

(٥) الجمع : ١ / ٦٠ ، الدرر اللوامع على معجم المواع : ١ / ٣٥ .

(٦) الأشموني ١ / ١١٤ .

(٧) الجاسوس لشدياق : ٤٧ .

(٨) خزانة الأدب للبلداني : ٢ / ٣٩٠ .

(٩) المنصف : ١ / ١٠ ط أولى القاهرة .

(١٠) سورة البقرة : ٢٥٨ .

«أنا آتيك به»^(١) بإثبات الألف في الوصل^(٢) والقرآن الكريم لضرورة فيه . بل ساق السيرافي في مخطوطته قراءة من قرأ «وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم» بإثبات الألف في الوصل (المجمع : ١ / ٦٠) ولكن النحاة تأولوا هذه القراءة (ارتشاف الضرب ١٢٢٢ رقم ٨٢٨ نحو دار الكتب) . والذي أميل إليه بين القائلين بالضرورة ، والذين يعزونها لتميم أن ثبوت ألف (أنا) في الوصل لهجة تميم ، أما عند غير بني تميم فلا يكون إلا في ضرورة شعرية . وهذه الصيغة التميمية (أى النطق بالألف في أنا وصلا ووقفا) هي التي شجعت الكوفيين بأن يقولوا إن الألف بعد النون من نفس الكلمة أى أن الألف الأخيرة في (أنا) أصلية وليست بزائدة كما يقول البصريون .

(ب) إثبات ألفه وقفا ، وحذفها وصلا^(٣) - وقال السيوطي عنها «بأنها الفصحى رلغة الحجاز»^(٤) وإثبات الألف وقفا وحذفها وصلا هو الذي جعل

البصريين يقولون بزيادة الألف الأخيرة في الصيغة . والحق أن البصريين جانبهم التوفيق عندما قالوا بزيادتها ، لأن الزائد هو ما لا يلفظ به لا وصلا ولا وقفا ، والألف اللينة هنا ليست كذلك لثبوتها في أنا - وقفا لجميع القراء ، ولا شك أن الرسم مبنى على الوقف والابتداء فلما ثبتت لم تكن زائدة ، ومما يقوى هذا احتفاظ لهجة تميم بالألف في حالتى الوصل والوقف ، ومما استدل به على أصالة هذه الألف ما جاء في سائر اللغات السامية : ففي آرامية العهد القديم *anā* و *nā* في السريانية كما ترد أنا جزءا في ضمير المتكلم *anokli* في الأكديّة و *anāku* في العبرية^(٥) . بل إن بعض العرب كان يكتبه كما كان ينطقه بألف لينة بعد النون ، كما يشاهد ذلك في نقش حران اللجا^(٦) ، وهو فيه «أنا شرحيل برظلمو»^(٧) فيرى الضمير عبارة عن أنا - بالألف اللينة ، فكل هذا يشير إلى أصالة المدّ في أنا في حالة الوقف وذلك ، رأى الكوفيون .

(١) سورة النمل آية ٣٩ .

(٢) شرح السيرافي : ١ / ٢٥٠ تيمور خط .

(٣) الأشموني : ١ / ١١٤ .

(٤) المجمع : ١ / ٦٠ .

(٥) فصلة من مجلة كلية الأدب عن الضمير (أنا) في اللغات السامية ص ٣٩٧ د . السيد يعقوب بكر (رحمه الله)

(٦) الدكتور : نامى من مقال «ضمير المتكلم المرفوع : الفقرة الأولى . من فصلة في مجلة كلية الأدب مجلد

١٩ ج ١ .

(٧) تاريخ اللغات السامية : ١٩٢ دكتور ولفنسون .

(ج) وجاء في الخزانة أن من العرب من يقول « أنه » إذا وقف - وهي لغة جيدة ، وهي في عليا تميم وسفلى قيس^(١) .
وعلل ابن جنى لتلك الصيغة بقوله « فبينوا الفتحة بالهاء كما بينوها بالالف » .
وقد ساق ابن يعيش شاهداً لتلك اللهجة من قول عربي عرقب ناقته لضيف فقيل له : هلا فصدتها وأطعنته دمها مشويا فقال : « هذا فصدي أنه » . يريد (أنا)^(٢) .

ولأدري كيف عزا البغدادي صيغة (أنه) في الوقف لتميم وقيس ، لأن النصوص تتفق على أن هذه الصيغة في (طيء) ، وهذا العربي الذي نطق بتلك الصيغة ولا نعرف من أي قبيلة هو فيما جاء عن ابن يعيش ، قد عرف بأنه حاتم طيء في شرح الشافية^(٤) فصيغته (أنه) في الوقف لطيء ، ولعل هذه الصيغة - نشأت كما يقول (بركلاند)^(٥) عن صيغة الوصل أن - أي أن بعض العرب ممن يقولون أن - في الوصل - ظنوا أن هذه هي الصيغة الأصلية فلما أرادوا الوقوف عليها ،

وقفوا عليها بالهاء - بيانا لحركة النون ، وهذا معنى قول ابن جنى « فبينوا الفتحة (آتى على النون) بالهاء »^(٦) .

وأرجح أن هذه الهاء هي هاء السكت جاءت لبيان الحركة - كالتى في قوله تعالى « ولم أدر ما حسابه » ومثل هذه الهاء آتى جاءت لبيان الحركة في الوقف ما جاء عن أبي زيد من أنه سمع أعرابيا من أهل العالية يقول : « هو لكّه » وعليكّه وجعل الله البركة في داركّه » ولا شك أن هذا الأعرابي يفعل ذلك في الوقف ، لأن الوقف يحتاج إلى بيان ، فإذا وصل حذف هذه الهاء ، لأن الحرف الذى يلي الكاف في الوصل يوضحها .

(د) وبعضهم يقول - آن - حكاها الفراء ، وفيها قلبت الألف إلى ا موضع العين ويقول ابن يعيش « فإن صحت هذه الرواية^(٨) كان فيها تقوية لمذهبهم » أى الكوفيين وهذه الصيغة تشبه من يقول « راء » في رأى أى أنها مقلوب - أنا . وقد عزاها صاحب

(١) الخزانة للبغدادى : ٤ / ٤٩٢ .

(٢) المنصف : ١ / ١٠ ط القاهرة .

(٣) ابن يعيش : ٣ / ٩٤ .

(٤) شرح الشافية : ٢ / ٢٩٤ / ٢٩٥ .

(٥) الضمير (أنا) في السامية للدكتور السيد يعقوب بكر ص ٣٩٩ فصلة من مجلة كلية الآداب .

(٦) المنصف : ١ / ١٠ ط القاهرة .

(٧) نواذر اللغة لأبي زيد : ١٧١ .

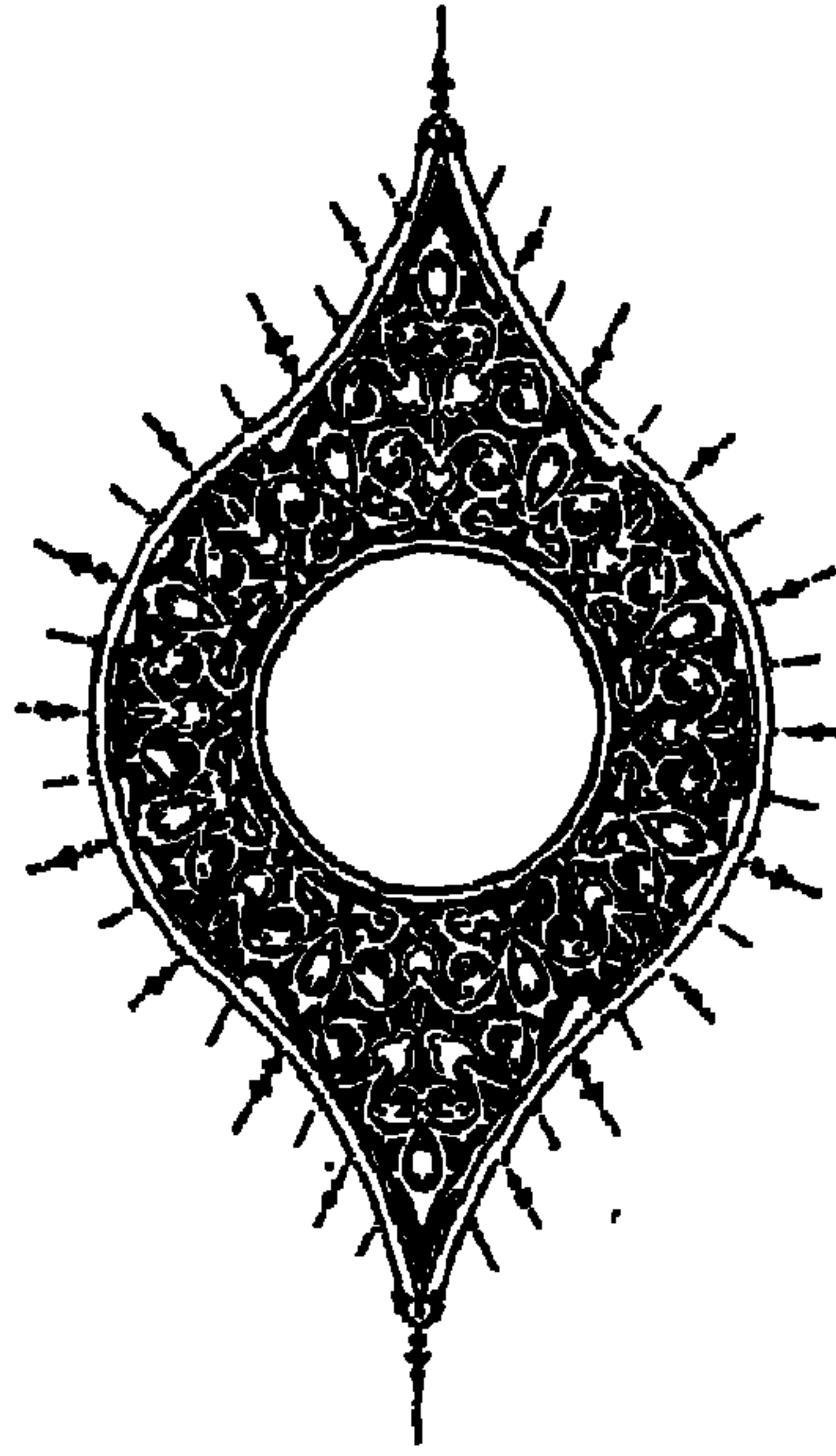
(٨) ابن يعيش : ٣ / ٩٤ .

التهديب إلى (قضاة) واستشهد لها بقول . وعاملة من قضاة^(١) ، ولهذا رجحت أنها
بُعدى :
لهجة الشاء القضاة :

باليث شعري آن ذو عجة
متى أرى شرباً حوالى أصيص^(١)
(هـ) ومن العرب من يسكن النون في
الوصل والوقت وحكى «أن» فعلت^(٣) .

والناظر إلى هذا الشاهد ربما يحمله على
الضرورة ، وبلدها بنا إلى البحث في كتب
الطبقات عرفنا أن عدينا هذا من (عاملة
في (أنا)^(٤)

أحمد علم الدين الجندى
البحث بقية



(١) اللسان : ١٦ / ١٧٩

(٢) الشعر والشعراء : ٢٣٧ تحقيق السقا .

(٣) غزاة الأدب البغدادي : ٤ / ٤٩٢ ، ابن يعيش : ٣ / ٩٤

(٤) أنظر شرح الشافية : (٣ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

الجغرافيا اللغوية وأطلس "برجستراسر"

للدكتور رمضان عبد التواب

يَمِيت

علم اللغة في العصر الحديث

بصلات وثيقة إلى علوم

أخرى ، فهو يقتبس بعض طرائقها ،

في معالجة الظواهر المختلفة ، أو يفيد من

النتائج التي وصلت إليها ، في محاولة لفهم

أسرار اللغة ، وهي أرقى ما وصل إليه

النشاط الاجتماعي لدى بني البشر .

ومن فروع علم اللغة في العصر الحديث

علم الاجتماع اللغوي ، وعلم النفس اللغوي

كما أن عالم اللغة لا بد له من الإلمام بعلم

الفسولوجيا أو وظائف الأعضاء ، وعلم

التشريح ، وعلم الطبيعة ، في دراسة الأصوات

اللغوية بأنواعها المختلفة .

ويتصل علم اللغة الحديث كذلك بعلم

الجغرافيا اتصالاً وثيقاً ، فقد اقتبس علم

اللغة ، منذ أكثر من نصف قرن مضى

طرائق علم الجغرافيا ؛ ليضع حدوداً

لغوية للهجات المختلفة ، في خرائط تبين معالم

كل لهجة ، وتفرق بين لهجة وأخرى ،

ولا تختلف هذه الخرائط عن خرائط الجغرافيا

إلا في أن ما يدون عليها ظواهر لغوية ،

تطلع القارئ على أدق الفروق في الأصوات

والمفردات ، بين اللغات المختلفة واللهجات

المتباينة .

وتطلعنا هذه الخرائط على الاختلافات

الصوتية بين المناطق المختلفة ؛ فقوم يجهرون

أصواتاً ، وقوم يهمسونها ، وطائفة تنطق

الفتحة صريحة ، وأخرى تنطقها بمالة ،

ولهجة تنبر الكلمة في مقطعها الأول ،

وأخرى تنبر المقطع الأخير منها . . . وهكذا .

كما يبرز في هذه الخرائط الدرس الواسع

للمفردات ، من حيث البنية والمترادفات

المختلفة للمعنى الواحد ، واختلاف الألفاظ

باختلاف المناطق اللغوية ، ومقدار انتشار

الكلمات في الأقطار والأقاليم ، وغير ذلك

مما يتيح لنا معرفة الواقع اللغوي للغة من

اللغات ، سواء أكانت لغات فصحي أو

مشتركة أو خاصة ، أو لهجات اجتماعية

أو إقليمية أو عاميات خاصة .

هذه الدراسة الجغرافية اللغوية ، تعد

من أحدث وسائل البحث في علم اللغة ،

ولها وظيفة ذات أثر بالغ في الدراسات اللغوية في العصر الحديث ؛ لأنها تسجل الواقع اللغوي للغات أو اللهجات على خرائط ، يجمعها آخر الأمر أطلس لغوي عام ، وتختص كل خريطة بكلمة أو بظاهرة صوتية معينة ، يبدو فيها الاتفاق أو الاختلاف بين المناطق اللغوية المتعددة وما لا شك فيه أن هناك تشابهاً بين لهجة إقليمية وأخرى أو بين لهجتين اجتماعيتين ، أو بين عاميات خاصة ، ما دامت هذه جميعاً ترجع إلى أصل لغوي واحد .

وعلى الرغم من تقدم هذا الفرع من فروع الدراسة اللغوية ، لدى علماء الغرب ، فإنه لا يزال غض الإهاب في بلادنا ، فليس لدينا في لغتنا العربية إلا محاولات قليلة منها محاولة قام بها المستشرق الألماني برجشتراسر Bergstruesser لعمل أطلس لغوي لسوريا وفلسطين ، نشره في ليبزج سنة ١٩١٥ م .

و« برجشتراسر » مستشرق ألماني مشهور ، ولد في عام ١٨٨٦ م ، ونال درجة الدكتوراه من جامعة ليبزج سنة ١٩١١ م ، برسالته عن « استعمال حروف النون في القرآن الكريم » ، ودرس في جامعات ليبزج ، وبرسلاو ، وهيدلبرج . واستمر به المطاف بعد ذلك في ميونخ سنة ١٩٢٦ م ، وانتخب عميداً لكلية الآداب بها سنة ١٩٢٨ م .

وفي العام الجامعي ١٩٢٩-١٩٣٠ م دعت كلية الآداب بالجامعة المصرية القدمة ، لإلقاء محاضرات في النحو المقارن بعنوان :

« التطور النحوي للغة العربية » ، وقد طبع في مصر سنة ١٩٣٠ م ، ثم دعت الحكومة المصرية مرة ثانية في العام الجامعي ١٩٣١ - ١٩٣٢ م ليلقي محاضرات في الجامعة عن تحقيق النصوص ، وقد نشرت هذه المحاضرات بعد ذلك في كتاب بعنوان : « نقد النصوص ونشر الكتب » في مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية سنة ١٩٦٩ م .

وكان « برجشتراسر » يكره « هتلر » ودعوته النازية ، لتفضيله الحديد على الزبد ، وتفضيله العلوم العملية على العلوم النظرية ، وكان لا يرى مانعاً من حمل بندقيته والخروج لمحاربته ، فدفع « هتلر » إليه بمن يقتله ، وكان نغماً بتسليق الجبال ، ففي إحدى المرات ، حيناً كان يتسلق الجبال ومعه طالب من طلبته ، إذ تعلق الطالب بقدمه ، فهوى من ارتفاع شاهق إلى قاع الوادي ، حيث لقي حتفه في شهر أغسطس سنة ١٩٣٢ م .

أما أطلسه اللغوي ، الذي عمله لبلاد سوريا وفلسطين ، فقد قام بعمل تسجيلاته كلها بنفسه في عام ١٩١٤ م ، بعد أن حصل على إجازة من جامعة ليبزج ، ليقتضي شهوراً في بلاد الشرق ، فسافر إلى الآستانة ، ومنها إلى سوريا ، وفيها تنقل بين بلادها باحثاً وراء اختلاف اللهجات الدارجة بها ، فكتب أولاً في « دمشق » ، ثم سافر إلى الجنوب في « معان » ثم إلى « حلب » في الشمال وفلسطين ولبنان .

وكانت حصيلة هذه التسجيلات ، أن وضع أطلساً لغوياً لسوريا وفلسطين ، وهو عبارة عن ٤٢ خريطة تفصيلية ، وخريطة واحدة إجمالية ، مع شرح لغوي في كتاب مستقل ، نشر في لبيز سنة ١٩١٥ م .

وسنعرض فيما يلي لطريقة « برجشتراسر » في عمله هذا ، كما بين هو ذلك في مقدمته لأطلسه ؛ إذ ذكر أن بحث اللهجات العربية قبله ، كان مقصوراً على دراسة كل لهجة محلية دراسة مستقلة ، وبين أن هذه الدراسات السابقة ، تفتقر إلى التكملة ، عن طريق دراسة الفروق اللغوية ، في مناطق كبيرة ، باستخدام الجغرافيا اللغوية .

وقد استخدم « برجشتراسر » الطريقة الألمانية^(١) ، في عرض جمل معينة على راوى اللهجة ، غير أنه اختار جملاً متصلاً بعضها ببعض ، في سياق قصة من القصص الشائعة في المنطقة ، وعلل للسّر في اختياره هذه الطريقة : بأن المقارنة عن طريق قوائم الكلمات ، لا يستطيع معها المرء أن يدرس الظواهر النحوية ، التي تحتاج إلى التراكيب ؛ فقال في المقدمة :

« ويواجه تدبير المادة اللغوية القابلة للمقارنة ، صعوبات كبيرة ، بصرف النظر عن الصعوبات الأخرى ، التي تعترض سبيل تسجيل اللهجات ، فقد يكون من

السهل عمل قوائم كلمات لموضوع ما ، ولكن مثل هذه القوائم — كما هو معروف — لا تحتوي في الغالب إلا على أسماء وأعداد ، وقد تحتوي على أفعال وصفات وحروف ، غير أننا نفتقد هنا الأمر الذي لا يزال كل شيء بالنسبة لعرض اللهجة عرضاً كاملاً

نوعاً ما ، وهذا الأمر هو التركيب موضوع دراسة النحو ، فإنه لا يمكن الحصول عليه بهذه الطريقة مطلقاً ، فيما عدا بعض التصريفات النحوية ، التي قد يخرج بها المرء بعد ساعات طويلة من الأسئلة. وهكذا لم يبق إلا طريقة واحدة ، وهي تسجيل نص متكامل (أو على الأقل جمل متكاملة) . غير أن مثل هذا النمط من السلوك في معالجة اللهجة عن طريق النص الكامل ، تصعب معه المقارنة الكاملة المطلوبة ، فلم يبق إلا أن يقسم النص إلى جمل صغيرة ، وينطق بها أمام الشخص الذي يمثل اللهجة (الراوى) وهو يعيدها منطوقة بلهجته وهذا أمر خطير بالطبع ، ويحتاج إلى حذر شديد للوثوق من أن الراوى يتحدث حقاً بلهجته ، ولا يحاول حسبما يستطيع أن يردد ما يسمعه من غيره ، غير أنه لا يجوز لنا أن نبالغ في رفض الصيغ التي تشبه نظائرها في نطق المسجل أمام الراوى . وقد حدث لى في أحيان كثيرة ، أن الأهالي عندما كنت أسأل أحد البدو في حضورهم ،

(١) انظر عرضاً للطريقتين الألمانية والفرنسية في عمل الأطالس اللغوية ، في مقال للدكتور خليل عساكر ، بمجلة مجمع اللغة (الجزء السابع) سنة ١٩٥٣ ص ٣٧٩-٣٨٤

كانوا يحاولون - حينما يفهمون ما أريد - أن يصححوا للبدوى كل الصيغ الغريبة ، التي ينطق بها البدوى على سجيته » .

وقد ذكر « برجشتراسر » الصعوبات التي قابله في عمله الذي تولاه بنفسه في منطقة واسعة ، ومدة قصيرة نسبياً ، فقال : « ومن القواعد المقررة أنه لا يجوز الاعتقاد فيما يرويه العربي عن لهجة لا يتكلمها هو نفسه . وإلى جانب هذا تأتي صعوبات أخرى ، وعلى الأخص ، عندما يكون في المكان الذي تبحث لهجته تعبيرات واصطلاحات أخرى ، غير تلك التي ألقاها المسجل أمام الراوى ، فإن المرء لا يحصل عليها عندئذ إلا بطريق الصدفة ، أو في حالة ما إذا كان راوى اللهجة شخصاً ذكياً الفؤاد :

« وعلى العموم فإن الطريقة المبينة من قبل ، تظهر الفروق بين اللهجات ، أقل مما هي عليه في الواقع - وإنه ليفترض دائماً حتى الآن ، أن الراوى قد أفلح عموماً في فهم ما يريده المرء منه - وذلك عسير مع البدو خاصة - وأنه ذكياً بدرجة كافية ، فقد اضطررت إلى قطع التسجيلات في أحيان كثيرة ، عند أول حديث مباشر في النص الذي عرضته ؛ لأن الراوى لم يكرره على أنه حديث مباشر بضميره المناسب .

« وقد تضاعفت هذه الصعوبات ، بسبب بعض الأمور الأخرى ، وقبل كل شيء

بسبب ضيق الوقت الذي أملكه ؛ إذ اضطررت للقيام بتسجيلاتي كلها في ٤٥ يوماً في منطقة ذات أبعاد هائلة . وهكذا أصبحت مراكز التسجيل أقل مما كنت أرغب . وفيما عدا ذلك ، كان لابد أن يقصر النص المبدل للتسجيل ، وأن يصرف النظر في كثير من الحالات عن فحص التسجيل ومراقبته بسبب ضيق الوقت . وقد تسببت العجلة كذلك ، في أنني لم أكن حذراً في انتقاء رواة اللهجة ، إذ يجب أن يختاروا من بين الأفراد الذين لم يتعرضوا لأي تأثير أجنبي » .

ويشير « أنطوان ميه » A. Meillet إلى مثل هذه الصعوبات التي تقوم في وجه تسجيل لهجة ما ، فيقول^(١) : « فإذا كان الأمر يتعلق بلغة محلية ، نجد أن الأشخاص الذين يستخدمونها محرومون عادة من كل ثقافة لغوية لوصفها . وأما الأجانب ، ففضلاً عن أنهم يفهمونها فهما غير كامل ، مع تفاوتهم في ذلك ، فإنهم يجدون مشقة في تمييز الأشخاص الذين يتكلمونها على نحو عادي ، بل إنهم عندما يعثرون على هؤلاء الأشخاص ، لا يستطيعون بسهولة أن يأخذوا عنهم المعلومات اللازمة ؛ وذلك لأن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، لا يعون على وجه دقيق الطريقة التي يتكلمون بها ؛ بل إن مجرد محادثة شخص يتكلم لغوة ما

(١) انظر علم اللسان لأنطوان ميه ، ترجمة الدكتور محمد منور ٤٥٤ - ٤٥٥

لشخص آخر لا يتكلم نفس هذه اللغوة عادة - ليكني لإلقاء الاضطراب ، في استعمال تلك اللغوة ، والحيدة بها عن الدقة . .

وقد بين « برجشتراسر » كيف اختار النص الذي عرضه على رواة اللهجة ، فذكر أنه أخذ القصة المعروفة بقصة « الفلاح والثور والحمار والديك » في صيغتها الدمشقية ، من كتاب « أوستروب » Oestrup ، غير أنه أعاد كتابتها مرة أخرى ، لكي يتجنب الصيغ الفصيحة فيها ، ولكي يتأكد من عريتها الدمشقية ، بعد هذا كله ، عرضها على أحد الرواة من دمشق فأقرها .

وفيما يلي جزء من هذه القصة التي قسمها إلى ٩١ فقرة على النحو التالي :

« (١) كان فيه رجل فلاح (٢) يعرف كلام الحواوين (٣) وعندو حمار وتور (٤) التور يحرت الأرض (٥) والحمار يركب عليه الفلاح (٦) يوم من الأيام قال التور للحمار (٧) أنا طول النهار باشتغل (٨) واثته بتقعد (٩) ما بتعمل شئ منوب (١٠) ياريتنى متلك يوم واحد (١١) اعطيني نصيحة إيشما كان (١٢) شوبدى أعمل (١٣) قالو الحمار عندى نصيحة (١٤) قالو فرجيني شو عندك (١٥) قالو الليلة لا تاكل عليك (١٦)

بيجي صاحبنا ييشوفك (١٧) بيظن انك ضعيف (١٨) ييدشرك يومين ثلاثة (١٩) قالو التور ابو الله هادا راى (٢٠) رايح اعمل هيك .

وفيما يلي أمثلة من دراسته اللغوية ، للهجات التي سجلها في سوريا وفلسطين ، وأقام عليها أطلسه اللغوى :

ففي الناحية الصوتية مثلا ، لاحظ « برجشتراسر » أن (الكاف) يختلف نطقها بين البدو والحضر ، وأن كشكشة الكاف (١) لا تسود على العموم في الحضر إلا في منطقة صغيرة ، وعلى الأخص في تلك الجهات التي تحول فيها البدو إلى مستوطنين في العصر الحديث ، وأن المدن كلها تنطق بصوت الكاف ، وأن مدينة « السلط » تنطق الكاف بالكشكشة ، فيما عدا المتعلمين فيها ؛ إذ ينطقون بالكاف ، وأن منطقة « عنزة » في الشمال ، تنطق الكاف بالكسكسة ، وأن في شمال منطقة الكشكشة ، يتأرجح النطق بين الكاف المكشكشة وصوت (.ty) كما في منطقة « سولم » مثلا .

وبالنسبة إلى الصيغ لاحظ « برجشتراسر » مثلا أن الضمير « نحن » ينطق « نحن » بين الحضريين في الشمال ، وعدد قليل جدا من البدو ، وينطق « إحنا » بين الحضريين في الجنوب ، والبدو في الغرب وينطق « حينا » بين البدو في الشرق ،

(١) انظر لظاهرة الكشكشة والكسكسة كتابنا « فصول في فقه العربية » ١٢٠ - ١٣٠

كما يذكر أن عددا قليلا من البدو ينطلق به « لحنا » .

وفي الدلالة على الزمن الحالي ، يذكر « برجشتراسر » أن كل الحضريين يزيدون الباء في أول المضارع ، وإن لم يكن الجميع تابعين في هذا لقواعد تطابق تماما القواعد المتبعة في دمشق ، ودائرة الاستعمال في معظم الأحوال أوسع منها في دمشق ، أما بين البدو فلا تسود هذه الباء إلا لدى القليل جدا منهم ، وربما يكون ذلك بسبب التأثير بالحضر . وفي مجال المفردات يذكر « برجشتراسر » أن البدو يستخدمون في معنى « الآن » مثلا كلمة : « هسّع » أو « هسّاع » وكذلك الحضريون في شرق الأردن . أما باقي الحضريين فإنهم يستخدمون « هلّقي » أو « هلاء » أو « هلقت » أو « هلاّت » وما أشبه ذلك . وكذلك يستخدمون « إسّا » أو « هلّقيت » أو « هلّقيت » .

كما يذكر أن الحضر في الجنوب الغربي يقولون : « في عرضك » أو « بعرضك » . أما البدو هناك فيقولون : « دنخالك » ، وباقي المناطق تقول : « دنخيلك » .

هذه بعض أمثلة لما في هذا الأطلس اللغوي ، من ملاحظات لغوية قيمة ، ويلاحظ في هذا العمل أنه ككل دراسة جغرافية - وصفي بحث ، يعنى بالواقع اللغوي ويسجله ، ولا يهتم بالبحث عن الأسباب والدواعي التي قادت إليه ،

أو بمعنى آخر ، لا يعنى بأصول الظواهر اللغوية ، والقوانين التي أدت إلى تطورها ، وهذا هو الفرق بين منهجين من مناهج الدراسة اللغوية ، وهما المنهج الوصفي الذي يبحث اللغة بحثا عرضيا لا طويلا ، ويصف ما فيها من ظواهر مختلفة ، ويسجل الواقع اللغوي تسجيلا أميناً ، والمنهج التاريخي الذي يدرس اللغة دراسة طولية ويتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة ، محاولا الوقوف على السر في تطورها .

وقد أشار « برجشتراسر » في خاتمة أطلسه اللغوي إلى ذلك ، فقال : « وهذا البحث يرمى إلى توضيح الصلات اللغوية الحاضرة بين سوريا وفلسطين .

وأما بحث تطورها التاريخي ، فإنه عمل قائم بذاته ، ويحتاج في تنفيذه إلى النقل الواسع عن المراجع التاريخية »

وعلى العكس من ذلك لا تكمل البحوث التي تتعلق بلغة سوريا وفلسطين ، ولا تلك التي تتعلق بفتح العرب لهذه المنطقة ، إلا بمعرفة الصلات اللغوية الحاضرة . وإذا كان الفتح العربي لهذه المنطقة قد أدى إلى اندثار اللغة الآرامية ، فإن هذا البحث يحتاج إلى تكملة من جانب اللغة الآرامية ، ممثلة في بحث تأثير الآرامية على العربية ، وأثر العربية في اللهجات الآرامية الباقية ، وهي لهجة « معلولا » إحدى قرى ضواحي دمشق . والله أعلم

رمضان عبد التواب